

الجندي الأخير في جيش سقنن رع



الطبعة الأولى

المجموعة القصصية : الجندي الأخير في جيش سقنن رع

المؤلف : سمير لوبه

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي :

دار النشر :

© جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف ودار النشر ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من المؤلف .
إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

الجندي الأخير في جيش سقنن رع

بقلم

سمير لوبه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء :

إلى الذين

فرضت عليهم تحديات لم يختاروها

فقرروا العيش ولم تحالفهم الحياة بعد .

مقدمة :

القضية ليست ماذا تكتب ولكن كيف تكتب

الروائي إبراهيم عبد المجيد

1- صلاة العيد

في ليلة العيد . بينما الأم مشغولة بترتيب البيت . يحتضن ملابس العيد ؛ يشم رائحتها . لا يجيد بعينه عن الحذاء الجديد . يأمل في العيدية الكبيرة ؛ ليشتري الحلوى ، واللعب الجديدة . يتعجل الصباح أن يأتي سريعاً . تطرب أذنيه أم كلثوم بأغنيتها (يا ليلة العيد أنستينا) . يغط في نوم عميق . يوقظه صوت أمه الحاني ؛ ليذهب مع أبيه لصلاة العيد .

طوفان من المصلين في ساحة الجامع الكبير تعلق حناجرهم بالتكبيرات . يمسك بيد والده . فرحته غامرة ؛ فالיום سوف يصحبه أبوه ليركب الترام ، ويذهب لحديقة الحيوان . يتوق لمشاهدة القردة ، وركوب الفيل ، واللهو بالمسدس البلاستيكي .

ما أن انتهت الصلاة حتى انصهر المصلون يتبادلون التهاني ، والتبريكات بالعيد ؛ يبحث عن أبيه فلربما يهنئ أصدقاءه ، وجيرانه بالعيد .

يقف على الرصيف ريثما يأتي أبوه ليمسك بيده ، ويعبر به الطريق ؛ فيعود للبيت ؛ ليأكل الكعك من صنع أمه . ينصرف المصلون ، ولا أثر لأبيه .

يأتيه شاب يافع يمسك بيده قائلاً :

- هات يدك لأعبر بك الطريق يا حاج

2- على الهامش

في يوم صيفي قاتئ يجلس حامد على الأريكة يقلب قنوات التلفزيون يبحث عن شيء من بهجة تسري عنه ، تصدر من حامد زفرات حارة لما يسمع ويشاهد على الفضائيات من دراما وأخبار يستمع إليها أكثر مما يتنفس ؛ ولكنه كمن يبحث عن إبرة في كومة قش في ليلة ظلماء حالكة السواد ؛ يغلق الشاشة ، ويمتد في محاولة يائسة متكررة أن ينام ولكن كالعادة يجافيه النوم ، يفتح نافذة فوق رأسه علها تأتيه بنسمة باردة تعينه على النوم في تلك الليلة شديدة الحرارة فما وجد سوى لسعات الناموس ؛ يحتضن مسند الأريكة بين فخذه ، ويدس رأسه في حجر الوسادة ربما تغلب على صوت مروحة السقف التي يعلو صوتها على صوت شخير زوجته البدينة التي تستلقي على ظهرها

فاردة ذراعها فتحمل معظم السرير ؛ فأجأته قلة الحيلة لاتخاذ الأريكة منامة له . يتقلب يمينا ويسارا ، يتصبب جبينه عرقا ، يغادر الأريكة ، يفتح باب الحجره الذي يصدر نشيجا يفوق صرير مروحة السقف وشخير زوجته التي يبادلها حبا بحب رغم أحزانه ، يتوجه للبلكونه ؛ يدخل السجارة الكليوباترا الأخيرة في علته ينفث دخانها ينظر إليه ، تتعلق عيناه بالساء ، يود أن يكون الآن في منطاد ؛ يعلو به ويبعد بعيدا في سماء صافية ونسيم عليل ؛ فيشاهد المروج الخضراء ؛ لا يشم غير عطر الورد ، ولا يسمع إلا تغريد البلابل . تغفو سيجارته بين شفثيه الغليظتين ؛ فيعود لأريكته في صمت ؛ فهو لا يريد أن يشعر من في البيت بالقلق الدائم الذي يعاينه والتفكير الذي يتصارع داخل رأسه كلما وضع رأسه على الوسادة لينام ، رغم أنه لم ينل القدر الكافي من التعليم لكنه رضع الحكمة من ثدي الحياة ، يطفو المزار إلى سقف حلقه ، ويجافيه النوم ؛ يتوجه للحمام ليضع بعض الماء على وجهه للتبريد قليلا فيلحظ وجود آثار الألوان لم تزل عالقة بتجاعيد وجهه البائس . يقلب حامد في رأسه أمرا ربما يغضب أسرته ولكنه صار حتما الآن وما عاد في قوس الصبر منزع ؛ صار نومه ضربا من ضروب المستحيل ؛ يفقد شغفه للحياة ، ويشعر أنه مرغم عليها ؛ لا يشغله سوى النجاة من يومه ، وتوفير متطلبات أسرته ، فالآن لا تحرص الناس على الترفيه قدر حرصها على توفير قوت اليوم . تثقل تلك الهموم كاهل حامد فلا تفلح الألوان في إخفاء بؤسه الذي حفرت الأيام والليالي عبر السنين العجاف التي طحنته رجاها كما طحنت الناس ؛ فغابت ضحكته وما عاد قادرا على ممارسة مهنته الوحيدة التي لا يعرف سواها ، وها هو بعد أن ملم شتات نفسه قد فعلها . على الكرسي يتمدد أمام الطبيب النفسي ، وما أن انتهى من الحديث الذي طال معه حتى توجه الطبيب إلى مكتبه ؛ يمسك بورقة عليها إعلان عن سيرك يقام على أطراف المدينة . يتوسط الإعلان صورة لمهرج بيعث وجه الملون على الابتسام ؛ فيقدمها الطبيب إلى حامد قائلا :

- نصيحتي أن تذهب لذلك العرض ؛ ربما تتخلص من كآبتك ، وتعود إليك ضحكتك ؛ فتنام قير العين هانها .

اعتدل حامد في مقعده وهو يطأطأ رأسه متنهدا يقول (أنا المهرج نفسه) .

ترى الشمس ستار الليل تفتح نافذتها تصاخ نهارا جديدا ، وفي ورشة الأسطى عبده الميكانيكي أمام إحدى المدارس الابتدائية ؛ وفي مشهد متكرر يمك بلية بالمكنسة التي تعلو عصاها قامته يكس ثم يحمل جردل الماء بذراع يفتقر للشحم واللحم ؛ يرش الماء براحتة الصغيرة . في حين يجلس الأسطى على الكرسي يلفه دخان الشيشة التي لا تفارق فمه . يدخل التلاميذ المدرسة التي تحمل للصبي أجمل الذكريات ؛ يوم صحبه أبوه في يومه الأول للدراسة . تحت السيارات يتقلب بلية في تراب الأرض ؛ يناول المفاتيح للأسطى ؛ يعطيه أحد الزبائن بقشيشا ؛ يقبله يضعه في جيب سرواله الرث الملطخ بالشحم وتراب الأرض ، وبعد الظهر تخرج التلاميذ من المدرسة بينهم كرة تتعاورها أقدامهم يهللون فرحين ، وجوار الرصيف يضع الصبية حقائبهم ؛ يلعبون الكرة التي يهاها بلية حد العشق ؛ يسرح بخياله معهم فيرى الكرة ملازمة لقدميه ، ومن قدمه في المرمى تستقر ؛ فيعلو صوت الجماهير إعجابا بمهاراته الكروية . فإذا بكف الأسطى تصاخ خده بعنف ليفيق فينتبه لعمله . يستحث الوقت أن يسرع ليلحق وقتا قليلا يلعب فيه الكرة مع أقرانه ، ويمر الوقت ، وتغلق الورشة ؛ يحتضن الكرة التي اشتراها له أبوه في الصيف الماضي قبل أن يموت بأيام . يجري عليهم فإذا بهم قد انصرفوا جميعا لحضن بيوتهم الدافئة ؛ تثار الرياح الباردة تعصف بالتراب عاليا . بينما يقف بلية وحيدا . وكفين رقيقتين لطخهما الشحم والزيت يضع الكرة على الأرض ؛ يركلها للرصيف ترتد إليه فيكرر ذلك ؛ ربما وجد في الجماد رقيقا يلعب معه .

4- الجندي الأخير في جيش سقن رع

ما أن عثر الجندي بوشار على حجر جديد حتى أسرع به ليفك شامبليون رموزه ، حجر آخر وُسِمَ بنقوش لم تحها نيران الزمن ، يعكف عليه شامبليون يسجل في أوراقه ما نطق به الحجر :

فرع الصغير " سِجَاو " من نومه على صراخ أمه وهي تلتفقه وتحضنه وتجري به مسرعة في الحقول بين نساء وأطفال ، الكل يعدو بعيدا ، ورجال القرية يحملون العصي والفؤوس أمام عجلات تجرها الخيول مندفة نحوهم تطيح بهم تحصدهم سيوف ورماح .. مع الغروب تعود النساء والأطفال ييكن رجالهم القتلى . يخيم الجوع عليهم بعد أن نهبت الهكسوس أقواتهم وحرقت منازلهم وهدمت معابدهم ، ومن قرية إلى أخرى يرحلون ، تتقدم النسوة المسيرة يحملن الصغار ، والعجائز خلفهن على عصيهم في وهن يتكئون .. شب الصغير عن الطوق وصار يافعا ليعي حقيقة الهكسوس من

العجائز اللائي تقصصن عليهم كل ليلة القصة كاملة . ذات صباح يودع أمه " نيت " التي صنعت له البلطة بيديها ليثأر لمقتل أبيه . وعبر النيل يصل " سِجَاجو " إلى طيبة ليجد الرجال وقد اصطفوا يحملون السيوف والرماح والنبال والبلط ، فيلحق بالصف الأخير فيكون الجندي الأخير في جيش سقنن رع . قابضا على بلطته متحفزا للقاء الهكسوس .

- لقد بلغ الظالمون المدى (يصرخ بها سقنن رع لجنوده)

يعلو زئير الجنود ، تمتد أيديهم لقرص الشمس ؛ تلمع سيوفهم المنجلية ، تدق أرجلهم الأرض فتقرع طبولها رعدا ، يرتفع غبارها أضبة تلمع من بينها أسنة رماحهم برقاً ، وبقبضة يده يضرب عل صدره ؛ يصمت الجميع ، يصرخ سقنن رع :

- لن نرضى الحياة في بلادنا عبداً أذلاء .

هدير الجنود تهتز له الأشجار؛ فتخلق الطيور فزعا.

سعادته غامرة ؛ فقد استطاع اللحاق بجيش سقنن رع لملاقاة الهكسوس ، والتقى جيش سقنن رع مع الأعداء في قتال دامٍ مرير ، صال وجال " سِجَاجو " معهم حتى باغتته ضربة خاطفة خلف رأسه ، وكان آخر ما رآته عيناه قبل أن يغشى عليه سقوط سقنن رع مصابا بجنجر خلف أذنه ؛ فيحيط به جنود أبوفيس .

هرعت الممرضة تخبر الطبيب بأن الميت عادت له الحياة ؛ لقد فتح عينيه بعد سنوات الغيبوبة . تلك التي بدأت يوم اطلقت عليه رصاصة مجهولة باغتته من بين الجموع الهادرة لتستقر في رأسه على مسافة ملليمترين من موته المحقق ، واليوم بعد أن انقضت سنوات ، وبعد أن اطمأن الطبيب لحدوث المعجزة يأمر بنقله من على الأجهزة إلى حجرة الإفاقة ؛ وعلى جناح السرعة تصل أسرته ليقابلهم بعيون الدهشة ؛ فقد تغير كل شيء كبر الصغار وشاخ الكبار . يجلس الطبيب على كرسي أمام سريره يمسك بإحدى راحتيه محدثاً إياه :

- إياك أن تمس مكان الرصاصة ؛ فإن حاولت تحركت فيكون موتك المحقق .

يومئ برأسه دلالة استيعاب القول ، تمر الأيام يتعافى ؛ يغادر المستشفى مع أسرته ، وفي الشارع هاله ما آلت إليه الحال ؛ تلاشت البيوت القديمة والأشجار ، باتت زرقة البحر باهتة ، وعلى رماله استقرت جنازير ضخمة صدئة قيدوا بها موجه الهادر ؛ فحمد الخافق في أعماقه ، يقدم للبائع جنبيين يطلب علبة سجائر كليوباترا . البائع بصوت غليظ ووجه متجهم :

- علبة السجاير بخمسين جنيه

يتحسس مكان الرصاصة في رأسه ، يسأل عن مصير سقنن رع .

5 - رسائل البحار السبعة

بعد أن التهم الزمن فصول عمره الأربعة في سفره الطويل بين موانئ العالم ، يقرر البحار العجوز للمرة الأولى أن يغادر السفينة ينظر إلى البحر يستنشق هواءه بقوة كان اليوم شديد البرودة ، فلا يُسمع سوى دوي الرياح ، مع الغروب يخرج من الميناء يبحث في الجوار عن حانة قريبة يسهل منها الرجوع للميناء ، ها هي الحانة وما أن دخلها حتى انزوى في كرسي بعيد ، يخلع العجوز قبعته ينزع الكوفية تأتيه نادلة تضع أمامه قائمة وتنصرف ، لا يلتفت إليها بل ينشغل بالنظر في أرجاء الحانة ، ثم أخرج من جيب معطفه رسائل وضعها أمامه وأخذ يرتها ، يخرج نظارته يمسحها ثم يرتديها يفتح أولى رسائله المطوية ، وهو ينظر عبر زجاج النافذة التي تنسال عليها زخات المطر إلى الشارع و الرصيف التي خلت إلا من بعض المارة يهرولون ، تطمس السحب الداكنة ما تبقى من ضوء هزيل فتنسكب أضواء السيارات حمراء وصفراء على أرضية الشارع ، تحلق ذاكرته بعيدا يعود لرسائله والتي خطها بيده ، وفي صمت يقرأ في الرسالة الأولى

حبيبتى .. أجوب دهاليز الليل وحدي ؛ أفك شفرة الصمت ، أسبح في فضائه بلا جاذبية ، تجتاح حدودي رعشة إعصاره ، سهام لحظك تخترق عرشى ، تغريبي بلقاء يجمعنا على شاطئ الغرام ، قيثاره عشقك صلاة لي ، ونغم همسك رقية شرعية ، وحدنا تحت غسق الليل تعانقين شغاف جسدي المرهق ، أرقص معك بجنون درويش يراقص فتاة عجزية ، فتضاء شوارعي ، وتبدد الظلمات ، تهديج أنفاسي أسقط مفترشا رمال الشاطئ أناديك :

- ألا تكفيك حالي ؟

تضحكين فيفور موج البحر تجيبين :

- ما زالت للحكاية بقية .

(٢) يفض الظرف بروية وما أن نظر لرسالته حتى تندت عيناه فيمسحها ويقرأ الرسالة الثانية

حبيبتى .. أتذكركين يوم رأيتك صغيرة تلهين ، وبأناملك الدقيقة تحتضين الألوان والأوراق ،
فيتعانق اللون مع اللون ، ترسمين وردة وفراشة ، وتدور الأيام فتطفئين شمعات السنين ، تأخذنا
الغربة ، كبرت الأصابع ، بهت الألوان ، تمزقت الأوراق ، بينا أنا في أرجوحة العمر ، يهرم
صبري في متاهات الزمان ، أود أن أودع أوجاعه ، وأترك خلف قضبان النسيان آهاته ، في ليل
الغربة كم رويت للنجوم حكاياتنا ، حبيبتى حملت ذات مرة أننا في ميناء التقينا ؛ وفي صالة
الوصول تاهت بيننا الكلمات ، فحفظنا منها الابتسامات ، راقبت عيناى اكتمال الزهرات ، يتناثر
على وجهي رحيقها ، فأطلت من عينيك زهرات الياسمين ، يهمس بشوق عطرها الفواح ، فانطلقنا
تحت جفن الليل ، ووضعت على بابك أكاليل الزهر ، فشربنا من كووس القبلات ، ويهمس دافئ
باح لسان عشقي :

- هيا اخلي عنك ثوب الاشتياق ، وهلمي فلنشرب معا كأس العناق .

(٣) يزرع نظارته وعلى مقعده يلقي برأسه للمسند يحملها ، يعاوده ذات الوخز في قلبه الذي
يأتي ويروح ولم يفلح معه علاج الطبيب الذي نصحه بالابتعاد عن الشراب نهائيا ، يطم عينيه
الناعستين عبر زجاج النافذة ، يدق قلبه مع هبة نسيم قد باحت بعطرها ؛ فتشعل وهج عشق لم
يظفئه طول الفراق ، يطلب شرابا تضع النادلة أمامه كأسا وزجاجة يمد يديه يشرب كووس ذكريات
لقائه الأخير بحبيبته ، يتسم ابتسامة خفيفة ، يرتدي نظارته يطالع الرسالة الثالثة

حبيبتى .. أسكرتني لوعة الاشتياق ، أمطرت سماءى أهات الاشتياق لدفء العناق ، في واحة
الذكريات ، تنهادين في خيلاء الفراشات ، وقد تمايلت الزهرات تقبل شفاه الغروب ، فأمد يدي
أدعوك للرقص ، فتغوص عيناى في أعماق عينيك ، تتوسدين صدري ، ترقصين على أنغام نبضي ؛
أبتسم فتشعل وجنتاك حمرة ، تتوارى عيناك خلف أجفان الخجل ، تطوقين عنقي بذراعيك ؛
تلتصق بخصرك النحيل راحتاي ، فيقطر البوح من شفقتنا شهدا .

يرفع رأسه من على المسند لا يشعر بنفسه إذ ينادي طيفها بصوت مرتفع :

- أغدا ألقاك ؟

(٤) تأتية النادلة ظنا منها أنه يناديها

- هل من خدمة أقدمها لك سيدي ؟

- عذرا .

يفتح رسالته التالية وعلى سطورها ترتعد الكلمات تتبعثر ، يللمها لينسج منها الذكريات ، يلفه ضوء شمعة تتوسط المنضدة أشعلتها النادلة وانصرفت ، فيعكس ضوءها شريطا سينمائيا لحياته ، يسير بين صوره القديمة على حافة الصمت ، يرافقه كأسه وفي شرابه يرى طيفها ، يتنهد يقرأ الرسالة الرابعة

حبيبتي .. بين ثنايا العشق ترسم ريشتي ملامحك تواشيح عشق نفوح بعطر الياسمين ، يعزف نبض قلبي لحن " جانا الهوى " يهمس آهات الشوق على أنغام " أمل حياتي " ، أعدو في مروج الذكريات معك لا تسع أحلامي المسافات ، ألهو معك تحت زخات المطر ، فيفوح عطرك ينعشني ، نهرول معا فوق غيمات أغانينا ، تغوص الشمس في عمق البحر ، يعانق القمر حضن السماء ، نوقع بشفتينا ميثاق الحب ، لا نكثر بدقات الساعة ، وعقارب الزمان تدور .

يطوي البحار الرسالة التي تبوأ مكانها في أرشيف الذكريات واستحالت لاصفرار في كتاب الحياة مع مثيلاتها ، يصب كأسا يشربه على مهل ، ومن نافذة الشرود يرنو إلى الوجوه .

(٥) يضع الكأس الثالثة على المنضدة وقد فرغت ، تحلق به الذاكرة بعيدا حيث زمن الصبا في بيتهم القديم . بجوار النافذة ينتظر أن تطل من نافذة بيتهم فيراها ، حوله شقشقة العصافير ، في ذلك البيت القديم ، تعانق أجرة قهوته رائحة كتب هي كل أصدقائه ، ينفث في الزجاج ، يرسم بأصبعه قلبا ، تتناثر زخات المطر على الزجاج ، فنتوه كل الوجوه إلا وجهها يناجيه فيجيها :

- منذ أتيتني لم تغادريني

يفض رسالته ينزع نظارته يمسحها ويمتدح ويمسح جبينه يمرره على عينيه ثم يرتدي النظارة يقرأ الرسالة الخامسة

حبيبتي .. أتذكرين يوم كنت في مرسمك ، تعزفين على لوحتك بفرشاة وألوان ، تسأليني الرأي أتأملها فتوقد الألوان وجداني ، فتمزجين سمرة وجهي بجمرة شففتيك فأهمس في أذنيك :

- ضمني نرسم معا عرشا للعشاق يغار منه الحياء .

فرقص على أنغام التانجو تتعاقب روحانا مع قوس قرح ، لا تكاد أقدامنا تلامس الأرض ، ترقصين
بخفة الفراشات تهديني السوسنات البنفسجية قبلة الحياة ، فنتأبط أيامنا بشغف ، نحيب الناي
يصدح بالأنين يعرقلنا ، ننتصب وبقوة نمضي نرقص على نغمات تعزفها أوتار الحياة فنصيح معا :
- هي رقصتنا نرقصها مرة واحدة .

(٦) يصب كأسا ، ويهيم وحده في الذكريات يبحث عنها ، يناديها بكلمات حب تزين بالورد
حروفه ، يشرب كؤوس العشق ، لا تطفئ ظمأه ، تسكن حروفه خرائب السطور العارية ،
يفتش في رسالته الغافية ما خطت يده في الرسالة السادسة

حببتي .. كل الحروف بلا حبك تفقد عطرها ، أستحث زهرات الياسمين لتخبرك بأن تلمي ندائي
كلما جن الليل ، تعتريني رعشة البرد ، فأغمض عيني ، أضم زهر شفتيك ، تداعب أنفاسك
الدايفة شغاف قلبي فتمطر سحائب أشواق عشقا يرويني . أدور في تلك الحلقة الرخوة حتى
ألبستني ثوب المشيب ، يبكي بداخلي طفل عمره خلف القضبان مسجون ، بينما حبه نقش فرعوني
لا تمحوه نيران الأيام ، الآن لا أخشى إن كنت فوق الأرض أو ثاويا تحت ترابها ، لم يمض حبي بعد
.

(٧) فرغت الكأس بين يديه يتركها ، يشعل سيجارته ينفث دخانها يتأمله ، يشير للنادلة تأتيه
مسرعة يطلب منها ورقة وقلما ، يطفئ سيجارته ويمناه يمسك القلم بينما تحمل راحته اليسرى ثقل
رأسه فيخط رسالته السابعة

حببتي .. تحت عباءة الليل الصامت فتحت صندوق الخشبي القديم ، وفيه تعانق الذكريات
عطر رسائلي القديمة ، التي تثير عاصفة وجداني وأشجاني ، بين غيمات الواقع الداكنة في خريف
عمري تتساقط أوراق ، أنظر إلى تلك الصورة التي جمعتنا في ربيع العمر على شاطئ البحر وقد
كتبت على ظهرها بجر صار باهتا " معا إلى الأبد ، " أين أنت الآن ؟ !!

حببتي صرت أحميا بين جدران وحدتي ، أغط في صمت عميق مع مقطوعات " موزارت " ،
تردحم ذاكرتي فيقاطعها صخب نوتة " باخ " ، تحوم روحي محلقة تبحث عنك في كل ميناء ،
يصرخ الصمت في داخلي :

- لقد اقتربت محطة الوصول فهل ألقاك ؟ !!

إلى جوار النافذة يتخيل طيفها تنهادي ، على شفيتها الورد مروى بأنداء الصباح ، خصرها الخيزران إذا هبت على قدها الريح تميل ، نار الشوق تحرقه ، على مقعده ينظر من النافذة ، يفقد خريطته ، تضع بوصلته ، فقد طال به المشوار وامتدت به بحار الغربة رفيقه الصمت ، ومن نافذة الحانة تتعلق عيناه بنجمة في السماء يطيل النظر إليها ، يتفصد عرقه يتهدد بارتياح ، يلقي برأسه على المنضدة بجوار رسائله السبعة ، يغفو غفوته الأخيرة فتغادر جسدها الروح لتتضم إلى سرب الطيور التي لا تنني إلى قفص .

6 - الدنيا على جناح سلامة

ذات صباح يستيقظ " سلامة " وقد غطت شمس الضحى جنبات حجرتة ، فقد تأخر عن العمل ، سنوات طويلة مرت لم يتأخر فيها يوماً عن العمل ، يسيطر عليه شعور اللامبالاة ، فالآن قد أغلق الستار على آخر فصول الوجد ، يرتدي قميصه يترك الأزرار مفتوحة ، يغادر منزله دون أن يرتدي قناعه اليومي ، هو ليس في حاجة إليه الآن ؛ فاليوم لن يذهب للعمل ولن يضطر لارتداء القناع ، يتسكع في الشوارع ، يستمتع بضي الشمس و صفاء السماء ؛ فالجؤ صحو اليوم ، لقد أفنى عمره بين تراب المكاتب منكباً على الأوراق ، وأمام البحر تناديه الأمواج فاتحة له ذراعها ؛ يخلع حذاءه وبروح طفل يندفع بملابسه ويلقي بجسده المتقل بعرق السنين وأتربة المكاتب إلى حضن الموج ليظهره ، فتلك هي المرة الأولى منذ عقود التي يغادر فيها روتين حلقته المفرغة ، فإذا به يلمحها مع الصبية على الشاطئ وقد تزينت بالألوان ، تداعبها النسائم تتراقص في دلال كلما تركوا لها الحبل على الغارب . لا تفلتها أيديهم رغم أنهم على الأرض وهي في صفحة السماء تنهادي ، تحرسها العين لا تحيد عنها إن مالت تميل معها القلوب ، برباط لا ينفصم تتراقص فترقص معها أرواحهم ، يقف سلامة بين الصبية وقلب طفل يمسك حبلها يلهو معها ، وعلى نغمات الموسيقى يغني مع الصغار ، ثم ينطلق بينهم على رمال الشاطئ يلعبون بالكرة ، حتى ارتدت الشمس ثوب الغروب الأحمر ، يمضي وفي الطريق يشتري لنفسه طائرة ورقية ، يصل إلى بيته يكسر المنبه يرمي القناع من النافذة ، يضع الطائرة الورقية أمامه ، وللمرة الأولى يطبطب عليه النوم بحنان فينام هائناً .

7 - أمطار في يونيه

لا يكثرث أيوب بهندامه . فقد أدى دوره في الحياة بإتقان واستطاع أن يخفي تحت قناعه رغباته الحقيقية ؛ فبدا وجهه الحقيقي خالياً من أي ملامح مثيرة مما يصعب معها تحديد نوع معاناته وإن بدت عليه اللامبالاة الناتجة عن تمرسه الطويل بشتى أنواع المعاناة . بين أصابعه الغليظة لفافة التبغ الأخيرة معه تحتضر . بينما يراقب النهر الممتد العتيق . اليوم ثمة في أعماقه نبع قد جف منذ زمن بعيد . لقد امتلأ نبع أيوب بالدمع ، ونبت على حوافه العشب ؛ يتصاعد من داخله الأسي على عمر فات وفتور شغف لكل ما هو آت . ذبلت الأزهار وحتى الأطيوار لم يعد صوتها العذب يدوم طويلاً ؛ يقف متجمداً أمام النهر الممتد العتيق بجسد متهاوٍ ورأس حبلى بالأحلام والآمال . عقلت أيامه أن تلد له حلماً . لقد ظل يركض في مضمار أيامه يجارب ، وما تحقق له سوى نصر بيروسي . عالمه سجن وفي نومه هروب وفي يقظته شقاء ؛ غابت عنه البراءة وضاع منه الطفل الذي كان يرى الدنيا فضاء شاسعاً مملوءاً بكل مدهش وجذاب ؛ فما كان يكف عن السؤال ولا تشفيه الإجابات . لم تعد للخبز والطعام تلك الرائحة التي كانت تنبعث من فرن أمه الطيني . يلتقط من الطين الأسود حجراً وبجمود همة يلقيه على صفحة النهر صناعاً دوائر تبحث فيها عيناه عن مبتغاه . يمسك بآخر فيلقيه بكل قوة ربما أفشت له تلك الدوائر الإجابات .

أتعبه المشي تسقط عيناه على نواة تمر ألقتها الأحداث يلتقطها ، واذ فجأة تركض رياح الشمال تجر سحائب داكنة تتقدمها أضواء البرق تدق لقدمها طبول الرعد ؛ تمطر السماء يغرس النواة في الأرض ؛ ربما صارت نخلة تحمل في جوفها سر الحياة فتساقط رطباً يفرحها أحدهم براحتيه ليأكلها وقد طاف في ذهنه أنه قد مر من هنا إنسان .

وبوجه طفل يقطر براءة يسأل في عفوية :

- أتمطر السماء في حزيران . أم هي دموع الرثاء !؟

8- الأراجوز

عم عليوة قابع هناك إلى جانب الطريق الزراعية ، وعلى الطرف الآخر بنايات من طابق أو طابقين . أبوابها دوماً مغلقة بجوارها مساحات مزروعة وأخرى تكومت فيها مخلفات البناء فنبئت بينها الأعشاب . ينام حيث تحط به الرحال ، ويقتات على قليل ربما يملأ البطن ويقوم رفق

الجسد المنهك ، ما أن يستيقظ حتى يحمل مسرحه على ظهره ويمضي . ما عاد عم عليوة حزينا على ما فات بل نادما على ذلك الطفل الذي اختفى أو ربما قد مات ولم يتبق منه سوى ذلك المسن السقيم الذي يتمنى الآن في نهاية الرحلة الشاقة أن يقابل عليوة الطفل ليبلغه أن ما اختاره ربما كان لا يستحق كل هذا العناء . على الدكة الخشبية داخل سرادق من الخيش الملون يجلس الطفل عليوة على الدكة بجوار أقرانه يتابع الأراجوز فتمتلئ روحه فرحا وسعادة بحكايات الأراجيز التي تملأ كل ذرة في كيانه . يسير في أثر الأراجوز مجذوبا من مجاذيبه يتعلق عليوة بسرادق الخيش الملون يشده صخب الأراجيز وحكاياتها الساخرة . وعلى ضوء مصباح هزيل يستلقي على حصيرة من خوص بجوار إخوته ويكفيه الصغيرتين مستغلا انعكاس الظل يصنع أشكالا تتحرك على الحائط يضع الأمانة المعدنية في فمه بمهارة وبصوت الأراجوز الحاد يحكي حكايات يرتجلها ويعيش فيها عالما قد اختار أن يهجر كل شيء من أجله . ظلت تلك عاداته اليومية بعد أن ينقضي نهاره البائس ، ومن نجوع قبلي إلى كفور بحري عبر أزقة وحارات القرى المنسية سعيا مع أراجيزه يحمل مسرحه على ظهره ، يحط في أي مكان ؛ ينصب مسرحه يقبع خلفه رافعا كفيه بالأراجيز تحكي للصغار والكبار حكايات يصفقون لها في فرح وسعادة . يحمل مسرحه لا تفارق الأراجيز كفيه . يتوجه كل يوم لينزع ورقة عليها رقم يقدم عروضه في الموالد والحارات حتى صارت أرقام الأوراق كلها متشابهة . خيالات كفيه في انعكاس الظل على الحائط تلهمه بالحكايات ، يداعب أراجوزه فينسيه قحط الأيام . يستيقظ عليوة ذات يوم متثاقل الجسد ، يبحث عن يناوله جرعة ماء أو لقمة يابسة يقيم بها رmqه فلا يجد سوى أراجيزه الصامتة ترمقه ، يتوجه لورقة اليوم لينزعها فلا يجد ورقة ، نفذت كل الأوراق ؛ يضع في كفه الواهنة أول أراجوز صنعته يده يقف وراء المسرح في سرادق الخيش الباهت المترهل ليقدم عرضه لدكك خشبية فارغة . لا ينسى عم عليوة أن أول أراجوز صنعته يده هو من دل العمدة أبو عمة مائلة منين يروح المتولي ، وأن أراجيزه هي من علمت الفلاحة الضعيفة فاطمة كيف تنتصر على طغيان العمدة عثمان ؛ يتذكر أيضا حشود المتابعين وفرحتهم بعروضه ، وراء المسرح يقدم عليوة عرضا لا يشاهده أحد ، انتهى العرض ووصلت الحكاية لنهايتها ؛ ينحني الأراجوز لتحية الفراغ ولا يستقيم بعدها أبدا .

9- على رأس الساعة

على رأس الساعة يمسك عماد بهاتفه المحمول ، ينظر في الساعة في حين تبث إذاعة الأغاني أغنية فريد الأطرش ساعة في قرب الحبيب ، يتذكر أنه رآها أمام باب السينما وهي تقترب من الباب؛

تلتبس بعضا من برودة التكييف المنبعثة من داخل السينما ، كان تلهفه إليها يفوق حرارة الصيف الملتهبة ، في حين يلتصق رواد السينما في جزء صغير يغطيه الظل تجنبا لشمس صيف قد أذقت الأرصفة لهيها ينضم عماد إليهم ليس رغبة في مشاهدة الفيلم ولكن للاستمتاع ببرودة التكييف ، وما أن دخل صالة العرض حتى انهار جسده على الكرسي فاتحا مسام جسده الضمأى لترتوي من برودة التكييف ممتما :

- ألا ليت الشتاء يعود يوما .

وإذ فجأة ينقطع التيار، ويغيب صوت فريد الأطرش ، وتتوقف المروحة عن الدوران؛ فتنز مسام جسده العرق ؛ فالحرارة مرتفعة يزيد من الإحساس بها ارتفاع الرطوبة ، يخرج للبلكونة ليتحاشى تأثير الرطوبة والإحساس بالحرارة الشديدة رغم أن الليل قد انتصف . يتذكر أنه رآها أول يوم استلم فيه العمل وهي تجلس على كرسي تحت شجرة في حديقة صغيرة تلي بوابة المصلحة ؛ تلتبس بعضا من نسيم يخفف وطأة الشمس المحرقة في صيف قانظ ، لم يكن عماد في حاجة لمرآة ليرى حمرة وجهه التي فاقت وجوه رواد المصلحة التي تنز بالعرق لشدة الحر وارتفاع الرطوبة ، وقد اصطفوا في طوابير سرمدية لقضاء حوائجهم ، فيردد بينه وبين نفسه أغنية محمد فوزي أي والله أي والله وحشونا الحبايب والله .

يلقي عقب سيجارته إلى الشارع ، وينظر للبيوت التي أخرسها الظلام وكبلها انقطاع التيار الكهربائي ؛ يتذكر أنه رآها يوم طلبت منها أمها أن تطفئ شمعة عيد ميلادها ، وهي تنظر إليه تبتسم والضيوف كلا ينتظرون قطعة من الكعكة وكوبا من الشرابات يرطب عليهم الشعور الخانق بحرارة الصيف في حين تنبعث أغنية عبد الحليم حافظ هسيبه للأيام وهي تعلمه ، عندئذ انتابته نشوة تفوق نشوة احتساء كوب من شرابات الورد المثلج .

يمسك بهاتفه ينظر للساعة ، وها هي تقترب من رأس الساعة ، يعلق ناظريه بالمصباح فإذا بالتيار يعود وتعود معه الحياة للبيوت؛ فيهوى على الكنبه بجوار المروحة التي دبّت فيها الروح ، يمسك بفوطة يفرك بها وجهه بطريقة لا طائل منها ، فيتذكر أنه رآها يوم الخميس وهي منصرفه من المدرسة في المريلة والشرايط البيضاء تزين شعرها ، يرفع حقيبتة ، ودون أن يرميها حتى برمشة وداع يجري ليلحق ما تبقي من فيلم إسماعيل ياسين ، يدخل البيت فإذا بكل أفراد الأسرة أمام التلفزيون يضحكون والممثل حسن أتلة يضرب الفنان إسماعيل ياسين بقايا جريدة مهترئة وهو يقول (مين ؟! سي لطفي) .

10 - من الشمس للظل

اليوم مرت الستون على يوم صيفي قانظ غادر فيه مصطفى بطن أمه بصراخ ودموع . رباه والده تربية صارمة لم يتقن مصطفى تطبيقها مع ولده في حين كانت نصح أمه العطوف الحانية دستوراً لحياته . بجسد بدين ووجه طيب يمشى في طريق العمر بتؤدة ، داخل الجدران يسير رفيقه الصمت الثخين ، يصير كل من يعرفه أن يناديه بـ " عم مصطفى " . لا يتجرأ عم مصطفى على عبور طريق ، وإن اضطر لذلك يعبرها متردداً بعد أن يد ذراعه يستعطف السيارات ، وما أن يعبر حتى يلقي بنفسه في أحضان الجدران يستند عليها لا يفارق الرصيف ، يقف احتراماً لمن يمر أمامه ، يلقي التحية عليهم واضعاً راحته على صدره زيادة في التقدير ، وغالباً لا يعبأ أحد بتحيته فلا يردها عليه ، يخاف دوماً أن يجب شيئاً جديداً خشية أن يرحل كما رحل كل من أحبهم ، يسترجع أيام العمر التي انقضت ، ينتابه الخجل فلا يخفيه بل يمكنه الاعتراف بذلك بعد أن مضى العمر معظمه ، الآن وجد عم مصطفى الفرصة سانحة لتأنيب نفسه التي لم تدفعه ولو لمرة واحدة للسوء ، موقن تماماً أن لا بد لكل بداية من نهاية ، وها هو يقترب من النهاية ، فقد مر شريط عمره كما يمر قطار سريع من محطة قرية لا تقر بها خريطة ، ينتابه شعور من خانه النرد فأطبق الطاولة على خسارة مفاجئة ، يواصل مشيه المكسور تحت الشمس المحرقة حتى تبللت عيونه جراء عرق يتصبب من جبينه ، فإذا به يجد مساحة من رصيف قد ألقّت ظلاً عليها شجرة ما زالت تقاوم من أجل البقاء ، يلف حول نفسه لفة كمن يبحث عن شخص قد ينهره أو يمنعه ، فلم يجد من يهتم حتى لوجوده ، تلتقط عيناه المرهقتان مشاهد الشارع الصاخبة ، وبجذر بالغ يجلس على الرصيف لينتقل من الشمس إلى الظل .

11- مقامة الشاب النحيف

حدثني زعيط ومعيط عن نطايط الحيط . عن العلامة الجليل قمر الدين أبو إسماعيل قال : أنه في بلاد الغال حيث يركبون الحمير والبغال وبينما كنت جالسا بجوار برج الحمام أكل الأرز من البرام . إذ يقبل عليّ في لباس أخضر شاب وسيم . نحيف كما عود البرسيم . وفي يده عود قصب بزعزوعة وعينه زائغة مفزوعة . فسلم سلام الجدعان ، ووقف كما الغلبان . فاستجلسته فجلس صامتا وما همس . فسألته عما يعاينه ، وعن حاله وما فيه فقال : أنا صاحب الأرض المزروعة

والفاجعة المسموعة . إذ جمعت من الأرض المحصول ، وبعث بالسعر المعقول ، فإذا بالبيه يعوم الجنيه ؛ فهبطت قيمة الفلوس ، وحملت على راسي فانوس . فقلت : صدقت ؛ أبو قرش صار بكثير ، ونضب الماء في الزير . متحسرا قال : وإيش يعمل أبو العيال مع الحال إذا مال ، وما ذنب أهل الدار بارتفاع سعر الدولار ؟! فأجبتة : ربنا يحفظ البلاد ويصلح أحوال العباد . فقال : يا أبا إسماعيل يا عالمنا الجليل ما لنا ونزاعات الكبار لقد اشتعلت الأسعار فقلت له : يا ولدي لقد ذهب الوزير عبدوس إلى ملك المجوس وقال له : يا أيها الملك . البعير هلك . فقال الملك هاموشير لعبدوس الوزير : يا للعجب ! ترى يا وزير ما السبب ؟ قال عبدوس وفي وجهه العبوس : ازداد في غيهم التجار وأشعلوا في الأسعار النار . تملل الملك وقال : لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالاً بدينار . فتمتم لنفسه وزير الديار : والله لندخلن جميعا النار . وضاعت بالناس الدنيا وصعبت الأحوال وكثرت في بلاد الغال الحمير والبغال .

12- نمل وخياشيم

في قاعة عرشه المزدانة يجلس على كرسيه الذهبي الصاحب ، تحت أقدامه أحراس بينهم بيدبا بلا قرطاس أو قلم ، وبخيلاء وعنجهية ينظر دبشليم نظرة قاسية فيصيب الحرس زعر في حين يرفع بيدبا ناظريه للملك مفتر الثغر في مهابة

- حرقنا قرطيسك وكسرنا محبرتك ، وبلغني أن لديك جديدا (يقول دبشليم)

يجيب الفيلسوف بيدبا بوقار وسكينة :

- الجديد قديم في مدينة النمل أيها الملك

- وهل من جديد في مدينة النمل ؟

- ليس جديدا ؛ يحكون أنه في مدينة النمل كان النمل يعيش عيشة هادئة ، يبذلون الكد والعرق فترضهم أرزاقهم وتكفيهم ؛ اعتاد النمل الصبر مع قليل من الثثرة تسري عنهم وهم جلوس بعد العمل يتسامرون .

اليوم تغيرت في مدينتهم الشوارع والمباني القديمة ، تغيرت حتى الأغاني ورائحة المدينة الجميلة ، الجميع يرحلون فحلت بشوارعها عشوائية مقبته ، حتى هواء مدينتهم صار فاسدا ،

- وجدران البيوت باتت كثيفة ، حتى الأزهار ذبلت والأشجار اجثت واستوطنت الوحشة كل حديقة .
- والنمل ؟
- مزق الجوع ثيابهم بعد أن صاروا بلا أحلام ينتظرون ، فكيف لهم أن يبقوا في تلك المدينة القميئة !؟
- أكل .
- في أسراب بدأت حشود النمل تشق طريقها تترأصوب البحر يسرون ؛ ربما في عبورهم لشماله تتسع أرزاقهم وتكتسي أجسادهم السقيمية ، يتعثر النمل العجوز في صعوده الربوة العالية ، يودعونهم بصوت مرتعش يكاد ينفجر بكاء ؛ فالكل مكسور، وروحه بأئسة حزينة ، بينما ترسم على وجوه شباهم علامات الذلة والتوجس ، وبداخلهم هم يندرج مثل أفضية سرمدية . تعتلي نملة اللوح الخشبي تنادي :
- يا أيها النمل اركبوا الألواح وجدفوا.
- يركبون الألواح صامتين ، تتوغل الألواح بهم حتى اختفت وجوه العجائز وغاب البر الجنوبي . يلقي الليل بصغته القائمة فتحيل البحر سوادا ؛ تتوتر الرياح تثور ؛ تلعو الأمواج وتهبط تتلاعب بالألواح ؛ يملأ عيون النمل رجاء يخالطه اليأس ، ويسقط النمل في خضم البحر.
- وماذا بعد ؟
- وأسفاه . ليس للنمل خياشيم .

13- وقيدت ضد مجهول

- هل من مجيب (صرخة اعتادوها في حارتهم يصرخ بها المجدوب كل يوم)
- يتسلل ضوء النهار من نافذته المتفسخة التي لا تبعد سوى سنتيمترات عن أرضية الشارع الموحلة التي تنضح برائحة العطن ، بمقدورك أن تدعوه بأي اسم فليست بالضرورة معرفة اسمه وذلك لن يفرق معه ، ولن يغير من أمره شيئا ، مجرد إنسان تتفتح عيناه كل يوم على جدران شاحبة رطبة في حجرة تضج برائحة الغبار الرطب ، ينهض مثثابا ملاذه الصمت . ينتعل نعلا بلاستيكية متهالكا حفر على أقدامه آثار أيامه الجذباء ، يخرج من باب حجرته ، ويخطو خطوات يومه الأولى ، تعي

أنفه ما اعتادت من رائحة البول وروث قطط وكلاب تخيم دوما على حارته الضيقة التي تزاور الشمس عنها ، وهنا تبدأ بالفعل معركته المعتادة في الخروج من الحارة ، وعلى قحف نخل يعبر مصرف مصنع الكيماويات الذي يفتح سطحه بطيور نافقة ؛ يلقي بها المجدوب في المصرف ، يمسك بعصاه ويجري على حافة المصرف يهش العصافير ، ويطارد الطيور دون جدوى .

يرمقه بلا أكرات ويمضي تخترق قلوية مخلفات المصنع فتحات أنفه ، يسرع الخطو ليلحق بقطاره المعتاد ، يستقل القطار مع من هم على شاكلته ، أولئك الذين لفظتهم الحياة من رحمها وبسكين ثلم قطعت حبلهم السري ؛ لتضعهم بين حجري رحاها مع المنسيين أو كما تجري به السنة العامة - المطحونين - الذين لم يسألوا أنفسهم يوما عن جدوى صبرهم على تلك الأيام التي رسمت لهم فيها الحياة طريقا واحدة تسير في اتجاه وحيد ، ورغم ذلك خبروه جيدا ، وعرفوا فيه كيف يتحايلون على المعاش .

في القطار يشم ما اعتاد عليه من رائحة بصل ممزوجة بالعرق فاحت من ملابس رثة تغطي أجسادا متهاوية تنبعث من بين أسنانها الصدئة رائحة الجوع الكريهة ، وحين يتوقف القطار في المحطة المعهودة توج الجموع في بعضها بعضا على الطريق الوحيدة ذات الاتجاه الواحد ، يندفع معهم من باب سوق الجملة يدخلون ، لا تخطئ أنفه تلك الرائحة التي تهين على كل شيء ، رائحة جثث قد تحللت مبعثها أكوام ورق كرنب دهستها إطارات سيارات النقل فامتزجت بطين الأرض . تغوص أقدامه تحت الطين تحمل كتفاه أجولة وأقفاصا تنوء بثقلها العسبة من الرجال ، وما أن ترتفع الشمس في كبد السماء حتى ينتهي من عمله فيعود في القطار مع ذات الروائح ، وعلى حافة المصرف مازال المجدوب يطارد الطيور .

يدخل حارته تستقبله بروائحها المعتادة . يجلع روتين نهاره الممزق ليرتدي روتين المساء الرث ، وعلى طبلية تشفقت أخشابها لتلفظ مساميرها الصدئة فتفسخت تجلس أسرته يأكلون ما أفاء به الرزاق عليهم حامدين ، مدوا أرجلهم تحت ألحفة قصيرة مدهنة يتكفنون .

على حافة المصرف يجمع المجدوب كعادته ما تقف من عصافير وطيور شربت منه يلقيها في مائه ، يدق أبواب رأسه بعنف ذات السؤال .

على مدخل الحارة يصرخ المجدوب صرخته اليومية :

- هل من مجيب ؟

14 - الطير المهاجر

في سماءٍ مدينته ترعى سحائبُ داكنةٌ ؛ تسوقُها ريحٌ باردةٌ . وحده يسير عدنان وفي داخله طفلٌ
فقد بوصلته في شوارعٍ مدينته المهذمة . لا يملكُ خريطةً ؛ تاهت منه الدروبُ . يحاولُ أن يتجاوزَ
مخاوفه . يفتشُ في وجوهٍ شاحبةٍ عن نظرةٍ عطفٍ ، يتمنى أن يسمعَ ولو كلمةً تمسح وجنتيه المبللتين
بدموعٍ الفقدِ ، لا شيء في فضائه المظلم سوى برودة الصمتِ الجاثمِ على صدره ، بين الركامِ تصفعه
الرياحُ فتتداعى حواسه وترتعدُ أوصاله ، يبحثُ عن يدٍ حانيةٍ فلا يجدُ إلا كفوفَ الصبارِ تدمي قلبه
الأخضرَ ، يجبو على ركبتيه يتلمسُ دربه براحتيه الرقيقتين ؛ تنخرُهما أشواكُ واقعه المؤلم ، يفترشُ
الأرضَ يبكي خوفًا ، ينامُ في العراءِ ؛ تخلقُ روحه في سماءٍ خياله ؛ فيرى نفسه في الأورسيه أو
اللوثر أو البارادو أو المتروبوليتان تتمزجُ روحه مع ألوان اللوحاتِ ، يركبُ الأمواجِ العاتية في ظلماتِ
كأداءٍ لا متناهيةٍ ؛ يبحثُ عن ربٍّ أو ربما وطنٍ لم تمزقه الصراعاتُ . على شاطئِ البحرِ تلتقطُ
عدساتُ المصورِ جثةً مُسجاةً لفظتها الأمواجُ بعد أن التهمت روحها ، تتصدرُ صورةُ عدنان الصحفِ
والمواقع .

الآن وجدَ قلوبًا تشفقُ عليه ، وعيونًا تدمعُ لحاله .

15- أبيض وأسود

بينَ أبيضٍ وأسودٍ تمضي أيامه اللزجةُ مُضي الحلازين ، لا يثقُ في النورِ؛ يرتدي نظارته السوداء .
على ضفةِ النهرِ قابعٌ ، يجبنُ أن يعبرَ للضفةِ الأخرى ، يهوى ركوبَ الترامِ إلى جوارِ النافذةِ حتى
آخرِ الخطِ والعودةِ بها ، يخلقُ في الفضاءِ الأزرقِ متخفيًا ، فيه ييؤحُ بكلِ جرأةٍ ؛ فلا أحدًا يعرفه
، تأسره عذوبةُ الأصواتِ . يغتاله تشجُّعُ البغالِ ، في المقهى يكتفي بالإشارةِ للنادلِ فيأتيه بفنجانِ
القهوةِ ، يستنشقُ أبحرَها المتراقصةً ؛ تروي روحه فيستوعبُ ما يدورُ حوله ، تفتُرُ شفقاته أحيانًا
عن ابتسامهٍ مستحبةٍ لحديثِ نفسهِ الثرثرةِ ، وبينما انداحت دائرةُ صمته لتحيطَ به فإذا بعينين
نجلوين للمليحةِ في خمارِ أسودٍ تسفران عن أنوثةٍ طاغيةٍ تفتجُ بهاءً في الفضاءِ الأزرقِ ، وهو الباحثُ
عن الماءِ في صحراءِ أيامه ، تشتهي روحه جميلةً تروي ظمأه ، ويبدُ مرتعشةً يضغطُ على طلبِ
الصدقةِ ، تدهشه موافقتها السريعةً على قبولِ الطلبِ ، يعتريه إحساسٌ يدغدغُ مشاعره ، تحدُّه
نفسه أن يكتبَ لها على الخاصِ وإن رفضت فهذا أفضلُ من الندمِ على ضياعِ الفرصةِ ، تملكه

روح المقامر فلو كان على صوابٍ صارت لديه فرصة الفوزِ بجميلةٍ تروي أرضه القاحلة ، ولو كان على خطأ فلن يخسر شيئاً مقارنةً بما سيخسره لو لم يحاول ؛ لذا عليه اقتناص الفرصة ، ورغم كونه خمسينياً فقد أخفى ذلك بمبالغٍ لفظيةٍ فيها توددُ المراهقين الفج لجذب الانتباه ، محاولاً من حديثه رفع الكلفة ، فوجد صدى جيداً منها ؛ فهي الأخرى سجيئةٌ وحده موحشة ، وقد وجدت في حديثه ما يشعرها بأنوثتها بعد أن تخطت الأربعين ، وحياءً لما بدأ يذبل من نضرتها . هي الأخرى تستيقظُ مبكراً دون مبررٍ تمثلها الوحدة ، تحب ركوب الترام حتى آخر الخط والعودة بها ؛ إن احتياجات كلٍ منها العاطفية والحسية قد ترفضها العادات والتقاليد المتشددة ؛ فتحول دون اللقاء الفعلي ، ولكن في حديثها على الخاص رياءً لمشاعرها ؛ تزدهر العلاقة العاطفية بينها عبر الفضاء الأزرق ، وقد أخفى كلاً عن الآخر حقيقته ، وفي الترام بينما تجلس أمامه امرأةٌ أربعينية تسبح عينها في شاشة هاتفها يتذكر أنه في الواقع خمسيني أعزب لن ترضى به تلك الفتاة العشرينية التي يكتب لها على الخاص ، وتؤكد هي في لحظتها أن عدم مكاشفتها له بأنها أربعينية عزباء سيعصف بالعلاقة برمتها ولن يقبل بها الشاب العشريني الذي تكتب له على الخاص ، وسرعان ما تحوّل لقاءهما على الخاص إلى سببٍ للهيم والكدر ، يسأل كلٌ منهما نفسه في ذات اللحظة عما ورط نفسه فيه ، وإذ فجأة يقررُ حظرها فإذا بها تحظره لنفس الدوافع وفي ذات اللحظة ، يغلق الهاتف يستعد لمغادرة الترام ، تنهض تلك الأربعينية التي تجلس أمامه في الترام بعد أن أغلقت هاتفها هي أيضاً ، يغادران الترام وعلى رصيف المحطة ، يمتزج الظلان ظلاً واحداً بينما شمس الغروب تلملم أشعتها الحمراء ، وإذا بكلٍ منهما يسير في اتجاهٍ عكس الآخر فيتمزق الظلان .

16 - طائر الكويتزال

من بحيرة طبرية إلى سهل مرج ابن عامرٍ مروراً بمخيم جنين ، في يديها قلبها قنديلٌ يشع نوراً، يفوح عطرها في واقعٍ مُرٍ ، تصعد المرتفعات بثباتٍ وتحدٍ ، تحمل الماء ليروي أشجار الزيتون فتبلغ عنان السماء ؛ ليراها القاضي والداني ماثلةً للعيان ، الزهرة تعبرُ الجدران غيرُ مكتثرةٍ بالأسلاك الشائكة ، لا تأبه بجنازير الطغيان وإطارات الجرافات التي تعملُ حديثاً لاقتلاع أشجار الزيتون كي تبني حظائر للخنازير ، تعاودُ الزهرة الكرة مراتٍ ومراتٍ بسالةٍ وعنادٍ ليفوح عطر الحقيقة ؛ فتثمر أشجار الزيتون ثمارَ الوجود ، تترصدُها فوهات البارود تطرحها أرضاً ، بينما ظل الماء يصعد المرتفعات يروي أشجار الزيتون ، تطرح الأرض حجارةً تزود عن أشجار الزيتون وطائر الكويتزال .

17 - ديوك تبيض

بينما تنظف الأم حظيرة الطيور ، ينظر الصغير إلى خن الأرناب ؛ يصيح :

- الأرناب باضت صغارا .

الأم بابتسامة رقيقة تربت على كتفه بجنو :

- الأرناب يا صغيري تلد ولا تبيض .

تستيقظُ القرية التي سقطت سهوا من ذاكرة الخريطة على أصوات ماكينات حفر ؛ البناء لا يتوقف ؛ سراية جديدة تبني على السكة الزراعية . عاد " منصور " من الغربة ، وقد ظهرت عليه النعمة ؛ صالة المنصور للسيارات وماكينات الزراعة ، حظائر تعج بالماشية . يسكن " منصور " السراية الكبيرة . أناس يدخلون ، ومثلهم يخرجون من سراية " منصور " .

في القرية يجتمع الناس على المصطبة ؛ يشربون الشاي . يمضغون الشائعات بنهم . تمضي الشهور على ظهور " منصور " ، وحياة القرية يطول فيها وقت الفراغ ؛ يفتش الناس عن أئفه الأشياء لينسجوا حولها الأساطير :

- لا شك يتاجر في السلاح أو الآثار .

- الأكيد أن له علاقات بالأكابر أو أنه يأتيه مدد من الجن وأهل الخطوة .

- إن التراب في يده يصير ذهباً .

أفواه بلا أسنان . الشائعات نار في الهشيم ، يهرعون إليه يضربون الأرض لتخرج بطيخا ؛ يلقونه في حجر " منصور " ؛ لتمطر عليهم السماء ذهباً ، وقد وضع كل منهم في بطنه " بطيخة صيفي " ، ولماً تأكد " منصور " أن ضرع البقرة جف تماما ؛ إذا بالقرية تستيقظ و حظائر منصور وصالاته خاوية على عروشها ، حتى السراية تصفر فيها الريح .

أمام الحظيرة صئى كتاكيت . نقيق دجاج ، وصياح ديكة .

يصيح الصغير :

- أمي . الديوك باضت ؟

18 - اللبن الصباح

مقعدٌ وطلشورٌ وسبورَةٌ ، جرسُ الفسحة ضرب ، تلتقمُ الجبنَ بخبزٍ يابسٍ مع وريقاتِ الجرجيرِ
وحبة طماطمٍ ، وإلى جانبِ الحائطِ تجلسُ برفقةِ قريناتها ، ومع رنينِ جرسِ الانصرافِ تخرجُ مع
مثيلاتها يافعاتٍ إلى بيوتهن يعملنُ فقد أرضعتهن الحالُ الرضا بالملكتوبِ ، في الليلِ ينتقلُ أبوها على
السريِرِ في جلبابه الأبيضِ ، تلقي بنفسِها على الحصيِرة ليرقدَ الجسدُ بينما أحلامُها تحلقُ عاليًا كالطيرِ
، وفي إحدى الأمسية يعجُ البيثُ الريفي بالضيوفِ رجالًا ونساءً ؛ تنطلقُ الزغاريِدُ لترفها إلى بيتِ
الزوجية ، يستمرُ طنينُ النحلِ يتبعُه زنُّ الدبابيرِ ، ومع فجرِ كلِّ يومٍ لا تكفُ النحلةُ عن الطنينِ ،
يجلسُ الزوجُ على الكنبَةِ في جلبابه الأبيضِ الناصعِ يلفُه دخانُ سيجارته ، في حين تحطُّ النحلةُ على
بيوتِ القرية تجمعُ السمَنَ وزجاجاتِ اللبنِ وسلالَ البيضِ ، وأمامَ الفرنِ تلتهبُ وجنتها حمرةً ؛ تحبُزُ
الفطيرِ ، تصنعُ الجبنَ لا تجدُ الوقتَ لقضاءِ حاجتها ، وبينما يطفئُ الليلُ قناديلَه وتثاءبُ النجومُ في
سمائها الرمادية تأتي عربةٌ نصفُ نقلٍ ، يقفُ زوجها في جلبابه الأبيضِ يدخنُ سيجارته بينما هي في
جلبابها الأسودِ يلفُها من تحته السروالُ ، تقومُ برفعِ بضاعتها على العربةِ تتبعُ إرشاداتِ الزوجِ وقد
جلسَ على كرسيِ يجتسي الشايَ ، وما إنَ تنتهي حتى تلقي جسدَها إلى صندوقِ العربةِ وأسروها
بضاعةً ، يربطُها السائقُ مع الأحمالِ ، وتنطلقُ السيارةُ على الطريقِ السريعةِ ، وفي سوقِ المدينةِ
تفتشُ أرضَ السوقِ حولها البضاعةُ غيرُ مكترثةٍ بقيطِ صيفٍ أو برودةِ شتاءٍ ، تنهافتُ عليها نساءُ
المدينةِ يتناوعنَ بينما تلتصقُ بفرشتها حتى ترتدي الشمسُ ثوبَ الغروبِ ، تأتيها العربةُ لتحملَ أوانيها
وسلالها الفارغةَ فترمي جسدَها المرهقَ في صندوقِ العربةِ ، تتوقُ لحمامٍ ونومٍ هانئٍ ، تحطُّ العربةُ أمامَ
البيتِ فإذا بزوجها قادمٌ من عندِ الحلاقِ وقد هذبَ شعرَه ونمقَ شاربه يفوحُ منه عطرُ الكولونيا ،
يمدُّ يده يلتقطُ منها كيسَ نقودها ؛ يرسلُ ابنه ليشتري له علبةَ السجائرِ الفاخرةِ في حين تحملُ على
رأسها الأواني والسلالَ الموحلةَ ترميها على أرضيةِ الزريبةِ ، يخرجُ الزوجُ من حمامه فتندفعُ إلى داخله
تفرغُ مثانتها التي توشكُ أن تنفجرَ ، في حجرتها الزوجُ في جلبابه الأبيضِ الناصعِ يدخنُ سيجارته وما
إنَ انتهى منها حتى ألقى بعقبها على الأرضيةِ غيرَ مكترثٍ ، تلقي جسدَها المنهارِ على الحصيِرة تحملُ
في حناياها صراخًا صامتًا ؛ تنامُ حتى يتبينَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ لتطيرَ إلى
بيوتِ القرية تجمعُ السمَنَ وزجاجاتِ اللبنِ وسلالَ البيضِ وأمامَ الفرنِ تحبُزُ الفطيرِ وتصنعُ الجبنَ
استعدادًا للسوقِ ، بينما الزوجُ ينتقلُ فوقَ السريِرِ في جلبابه الأبيضِ الناصعِ ، مازالَ طنينُ النحلِ
مستمرًا يتبعُه زنُّ الدبابيرِ .

19 - إنهم يزرعون الكراسي

مجرد اسم في البيت الطيني داخل الحارة الكسيحة في تلك القرية العرجاء التي لا تعدو كونها خطأ في خريطة متهاكة ، يدخلها مرة في اليوم قطار مخمور يتسكع على خط السكة الحديدية ، وبصوت يح ينادي عليهم ربما يغامر أحدهم ويركبه لكن الكبار هنا تعلموا ألا يجادلوا البحر في موجه ، فهم يفضلون السير حفاة وفي أفضل الأحوال يركبون الدواب ؛ فالمسافات عندهم مثل أيديهم قصيرة ، يتجمع الصغار في ساحة الجرن المتربة ، يخرج جحا في ثيابه الرثة راكبا حماره بالملقوب خلفه تلاميذه ، ليسألهم أحدهم :

- لماذا تركب كما نرى يا سيدي ؟

فأجابه قائلاً :

وما أصنع؟! إني إذا ركبت مستقيماً تبقون خلف ظهري ، وإذا سرتم أمامي أبقى خلفكم ، من أجل هذا ركوبي بالملقوب هو الأصح ، الحكيم يأتي متكئاً على عصاته المعوجة يفترش أرض الجرن غير مبال للأتربة المتراكمة يمسك ببقايا طبشور التقطته أصابعه من بين التراب ليكتب على اللوح الخشبي الباهت

" في البلد التي تعبد عجلاً حش البرسيم واعط له "

وبصوته المشروخ :

- هذا درسكم الأول تضعونه قرطاً في آذانكم كي ترعوا شتلاتكم الصغيرة فتصير أشجاراً لا يقتلها كائن من كان

يمسك أصيصاً يعلمهم كيف يرعون شتلاتهم الصغيرة حتى تصير شجرة تمتد جذورها في الأرض فلا تقتلها عواصف الأيام ورياح الصدف ، يعي الصغير درسه الأول يشب عن الطوق يصير شاباً ليغامر ويركب القطار لأول مرة ، فما إن ركب حتى وجد كرسيًا شاغراً يريد أحدهم أن يجلس عليه فيقفز إليه سريعاً ويجلس متشبثاً به يود لو ينتزع الكرسي من القطار ويأخذه لكن محال ؛ فالكرسي مثبت بالمسامير إلى أرضية العربة ولا يمكن نزعها مما حدث ، هنا يدرك ويعي ما تعلمه من الحكيم في درسه الثاني وعلى رصيف محطة العاصمة تلتف الساق بالساق فيطأطأ رأسه يدسها بين أجساد الجموع مخترقاً الزحام صوب شوارع المدينة ليخرج أولاً وحينئذ يعي نجاحه في تطبيق الدرس الثالث الذي تعلمه ، وعند الخروج تعلو أصوات الجموع تعترض على الحاجز المروري يمنعهم رجل

المرور رافعا عصاه فيصعدون الكوبري المعدني الكبير مرغمين في حين أغلق هو فمه لم يعترض فقط
ابتسم لرجل المرور في خنوع ففتح له الحاجز المروري ليعبر وحده فوصل قبل العابرين فوق
الكوبري للجهة الأخرى فيفرح لتفوقه في امتحان الدرس الرابع وأمام المبنى الشاهق تتزاحم الجموع في
أوسط السلم تتلاحم أجساد النازلين بالصاعدين في حين يصعد هو من الحافة اليسرى للسلم مستندا
للحائط فيصل قبل الجميع وبذلك يكون قد حقق ما قد وعيه من الدرس الخامس وعند مدخل
باب الإدارة اصطفت أصناف الشتلات الصغيرة لا تعيرها الجموع التفاتا بينما يقبل ليحتضن إحدى
الشتلات يسقيها دروسه الخمسة التي ضمها لتكون عقداً في أوسطه صورةً لجمارٍ مربوطٍ ، صارت
الشتلة شجرة ذات جذور ممتدة إلى الأعماق ، تنمو الشتلة وتصير شجرة تقوى وتمتد جذورها يوماً
بعد يوم ، ذات يوم وقف ساعي المكتب يلمع لوحاً نحاسياً مثبتاً بالمسامير على الباب الكبير وقد
حفر اسمه على اللوح النحاسي وفجأة يضاء المصباح الأحمر والموظف الأنيق يحمل الملفات يمنعه
ساعي المكتب من الدخول

- البية عنده اجتماع مهم

مضت السنوات وفي السيارة السوداء الفارحة يعود لقرينته التي اختفى منها القطار المخمور واندرت
معه السكة الحديدية والبيوت الطينية وتعالق الأبنية واصطفت السيارات واختفت الدواب و في
الطرق على الأسفلت نساء يرتدين البنطلونات يمشين بشعورهن السارحة دون قيود ، وفي
المساء يصحبونه للاجتماع بالشباب في القاعة المكيفة وسط القرية ، يجلس على الكرسي يتوسط
المنصة تترقبه العيون

- اليوم أعلمكم كيف ترعون شتلاتكم

ولما وصل جما إلى الوليمة بثيابه الرثة ، طرده الخدم من الباب ، فعاد إليهم بثيابه المدخرة وعليه
عباءة أعطها له أحد الأمراء ، فأكرموه وتقدموه إلى مكان المائدة ، فغمس كفه في الصحن واحدة بعد
واحدة ، فقال لكم كأنه يناجيه: " كل يا كمي ، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام " يحمل كل منهم
شتلته وقد وعى دروسه الخمسة .

مع كل فجر يساق إلى دائرته المظلمة ، وما أن يمر الوقت حتى تجلده بلهيبها شمس بؤونة ؛ فيتشقق بسياطها جلد ظهره . في مسيرته القائمة وحيدا لا يرى بصيص نور . فقط وحده في دائرته التي لا تنتهي حتى تئن مقادمه . هي نفس الخطوات إجبارا لا اختيارا يمسيها حتى في زمهرير كيهك . لا يدري نهاية لها . يعجز أن يحرر عينيه من قيد يطمس النور . ليس من حقه التوقف ليأكل ، أو يطفى غلته . إنه يسير ذات الخطوات في تلك الدائرة اللعينة ، يزرقه الحنين لحليب أمه التي غابت عنه ولم تعد . يشتاق لذلك الدلال الذي تمتع به صغيرا ، وغاب عنه حين شب ، وصار قادرا ليساق لذات الدائرة . لا يعرف لماذا يغطون عينيه ، ولماذا يسير كل هذه المسيرة في خطوات قليلة مكررة مئات بل آلاف المرات .

ينساب لأذنيه أصوات العصافير من أعلاه . يحاول أن يحاكيها ؛ لكن صوته ليس كصوت العصافير ، وعندما تخف حدة الشمس يسمع ذات الخطوات تقترب منه . هو يعرفها جيدا . فعندها فقط سيتوقف عن الدوران في تلك الحلقة المفرغة . تمتد اليد التي تنزع عن عينيه تلك الغامة المقيتة . يسمع أصوات العصافير تتعالى من فوقه ، وقد توقفت الشمس عن جلده بسياطها الملتهبة . يسير في طريق العودة لغذاء قد تعود الحصول عليه في مثل هذا الوقت مع شراب يرطب كبده ، وما أن يدخل إلى مأواه حتى تتجمع على بدنه المرهق كل الضغوط ؛ ينتابه التعب الشديد الذي يكاد معه أن يتوقف قلبه . يحاول أن ينادي على العصافير ؛ يريدنهم أن يأخذوه معهم حيث البراح . جن الليل ، واختفى معه صوت العصافير ، وعلا صوت صرصور الليل ، وتقيق الضفادع . يزيد خواره عاليا يناديهم ، تسيل مقادمه على الأرض ، ويخرج الزبد من فمه ؛ فإذا بالأقدام حوله تهرول ، والصيحات تتعالى .

يقدمون له الطعام فلا يعبأ به . يناولونه الماء فيعفه غير حافل به . يكثر الهرج والمرج حوله . يصبحه عويل نساء كن يجمعن ما يخلفه يوميا ، وينظفون الأرضية تحته ، ويفرشون له التراب والقش ، ويقدمن له البرسيم أو التبن .

يخفت العويل . يزداد ضجر الرجال ؛ يقبلون عليه مسرعين . يقيدون مقادمه بالحبال بلا شفقة . في دهشة يتساءل :

- لماذا يقيدون مقادمي ؟

21 - المريلة

شبَّ الوليدُ ؛ يدخلون به من البابِ الكبيرِ ، يلبس الحذاءَ الجديدَ فوقَ الجوربِ الناصعِ ؛ يزهو في المريلةِ الصفراءِ . المعلمُ ينادي الجمعَ الذين اصطفوا ؛ ينتبهون :

- ثني مد .. صفا انتباه .

تتسلقُ أعينهم الصاري تعانقُ العلمَ ؛ ينشدون للوطنِ نشيدًا حفظوه ، ثم إلى الفصلِ يساقون ؛ يجلسُ كلُّ منهم على تختةٍ له حدودها . قيامًا للمعلمِ يرددون التحيةَ . يُضربُ الجرسُ ؛ يفتحون الكتبَ والكراريسَ ؛ يخطُّ الطباشيرُ الأبيضُ على السبورةِ السوداءِ لبيدًا للدرسِ :

- أَلْفَ باءٍ .. واحد اثنين ..

تعانقُ الألوانَ أصابعهم الدقيقةُ ترسمُ وردةً وعلماً ، وما أن انتهوا ؛ يذهب الجميعُ ليستقي ما زرع من حباتِ فولٍ على قطنٍ أبيض . سؤال و جواب .. ارفع إيدك .. أكتب احسب .. احفظ سمع .. قلم أحمر .. تاخذ نجمة .. فسحة ولقمة .. ضحكة ولعبة .. ليم الكراريس .. ضُرب الجرسُ ؛ تراويح ... ؛

شباب الوليدُ ؛ يدخلون به من البابِ الكبيرِ . الإمامُ ينادي الجمعَ الذين اصطفوا :

- صلاةُ الجنازةِ أربع تكبيراتٍ .

22 - البرابرة في المدينة

يُرفع الستارُ وعلى خشبةِ المسرحِ المظلمةِ يمشي السلطانُ مطأطئاً الرأسِ في عباءةِ الملكِ تخرجزُ على الأرضِ ، يحيطُ به ضوءٌ يجبو شيئاً فشيئاً ، يضعُ سيفه على كرسي العرشِ ينسحبُ في انكسارٍ ، ومن بابها يودعُ المدينةَ متحسراً فيظلمُ المكانُ . خلفَ كواليسِ المسرحِ جلبتُ وصياحُ ، هتافُ جماهيري يشقُ عنانَ السماءِ . صوتُ دبابَةٍ تحاولُ دخولَ المدينةِ ؛ يضيقُ عليها البابُ ؛ يصيحُ رآكها بحماسٍ يشعلُ الهممَ ؛ تنجذبُ إليه الأبوابُ :

- حطموا البابَ فندخل المدينةَ .

تسيرُ الدبابَةُ في شوارعِ المدينةِ ، وفوقَ صهوتها يشاهدُ رآكِبها القصورَ ، والحدائقَ الغنَّاءَ تختضُّ
أعمدةَ المعابدِ والتماثيلَ الرخاميةَ ولوحاتِ الفسيفساءِ الملونةَ .

يصيحُ بغضبٍ كالمعتادِ فتستجيبُ له الغوغاءُ :

- افتحوا القصورَ وكدسوا فيها المكاتبَ والأوراقِ . اقتحموا حدائقَها للهوِ والألعابِ .

البرابرةُ قادمون يتكاثرون ، وأبناؤهم يتزايدون ؛ لزعيمهم يتوجهون :

- أين نلقي قمامتنا والأوساخَ ؟

- ارموها فوقَ الأرصفةِ أو في منتصفِ الطريقِ أو حتى أمامَ كلِّ بابٍ .

- رائحةُ النتنِ ستفوحُ في شوارعِ المدينةِ كلها ؛ تزكُمُ الأنوفَ .

- لا تهتموا ، على رائحةِ النتنِ سوف يتعودون .

- وأين نتعبدُ ؟

يمطُّ رقبتهُ يصعُرُ خدهُ يفرُدُ ذراعَه عن آخرِه وبالسبابةِ يشيرُ :

- تحت كلِّ بناءٍ وفي كلِّ حارةٍ وزقاقٍ .

تزلزلُ الميكروفوناتُ سكونَ المدينةِ ؛ تصمتُ الموسيقى تفرغُ الأطيَّارُ تسكنُ أعشاشَها البومُ
والغربانُ ، تضيقُ الشوارعُ بالبرابرةِ ، يصيحون :

- هلموا وزيدوا في بناءِ العشوائياتِ لتسكنوها .

- احرقوا الكتبَ أو ارموها في البحرِ لنفسحَ مكانًا لعرباتِ الفولِ والكافياتِ .

- ضعوا بضاعتكم في الشوارعِ حولها لأسواقٍ .

- افترشوا الحدائقَ بكلِّ ما يُشترى ويُباع .

ينظرونَ للتماثيلَ ولوحاتِ الألوانِ ، تنسابُ إلى آذانهم تلكَ الموسيقى المنبعثةُ من فوقِ الأفنانِ ؛
فيها لونٌ بالفؤوسِ يقطعون الأشجارَ ، ويزرعون الأسمنتَ في كلِّ مكانٍ .

يناديهم الزعيمُ بنبرةٍ صارخةٍ :

- أتمُّ أبناءُ البرابرةِ ، البسوا ما تشاءون ، غنوا ما تحبون ، اهدموا ما تكرهون .

تغرُق رُوْح المدينةِ في الضبابِ ، تنطفئُ الأنوارُ ، يظلمُ المكانُ ، تنعقُ الغربانُ ، ينبعثُ صوتُ
الجوقةِ من خلف خشبةِ المسرحِ

- نحن البرابرةُ ورثنا المدينةَ وما عليها ولا نعرفُ للذوقِ جسداً أو عنواناً ، وفي صوتٍ واحدٍ
يصيحون :

[المدينةُ والبحرُ لنا .. المدينةُ والبحرُ لنا]

يُسدَلُ الستارُ .

23 - باب البحر

على رمال الشاطئِ تحت الشمسِ ، وبأيدي صناعٍ ماهرةٍ صرت ملكاً . نزلت للماءِ . قابلت البحرِ .
لا أهاب الموجِ . بذراعين طويلتين قويتين أدق باب البحرِ ؛ تهتز صفحته تحتي ، وبصدر مفتوح ،
وبجراً الفارس الذي يشق صفوف أعدائه ، ولا يخشى كثرتهم ، وأسنة رماحهم ، وإن سقط مضرجا
في دمائه على أرض ساحة الشرف . مهما اشتدت الظلمة ، أو قيظ الشمس أشق صفحة الماء .
أجد بهمة مع نور الصباح الوليد وراء رزق تحت الماء يسبح ، وفي الغروب أتهادى مع العشاق
أسقيهم كؤوس النسيم . لا أعبأ بالبحر اللجي ؛ أمخر عبابه في خيلاءٍ مهما هزتني صفحته . أعانق "
كاليبسو " عروس الماء ذات الشعر الكهرماني ؛ فيرسل البحر موجاته العجوز ؛ يريد أن يشعري
بقوته . أتمادى في خفة الفرسان ، وفي ثقة الملك ثابت الخطو . لا أخاف غائلة أمواجه . أضحك منه
كلما يحكي لي كيف غضب على " أوديسيوس " ، وأبعده لسنوات عن " بينيلوبي " الجميلة . أسرع
الركض في رشاقة أيائل " أرتميس " . أتمايل هازئاً منه ؛ فلم يتبق لديه سوى موجات ترهلت بمرور
السنين ، وحواديت عنفوان شبابه الذي انقضى ، ولن يعود . أجري على صفحة الماء . تفقأ ذراعي
الطويلة عيون الموج الرخو غير مكترث به .

فإذا بنوة ليل تهيج لها السحب . يشق فيها البرق سواد الليل القاتم . يزعق لها الرعد في بوقه
النحاسي ؛ فينتفض " بوسيدون " فarda ذراعيه لأعلى ؛ يتطاير رداؤه يبعثني . فإذا بي على رمال
الشاطئِ أشلاء مبعثرة ؛ تسيل من عيني دموع مالحة . لا تطفئُ آلاماً سرمديةً ستلازمُ وحدتي
على رمال الشاطئِ تحت الشمسِ .

24 - قدورة أبو العيال

مع الغروب أحرص على مغادرة البيت بعد أن تحف وطأة الشمس من الشوارع لتختزنها البيوت فكأنها أفران الخبز ، وعلى مقهى " الصمطي " القريبة من محطة القطر أجلس على رصيف المقهى ؛ أستجدي نسيمات هواء بينما أشرب القهوة وفي صمت أقرأ أو أكتب ، ولم يكن غريبا أن يأتي عم " قدورة أبو العيال " في صورته التي اعتدت عليها ، رجل قصير القامة متوسط القوام ليس بالحنيف ولا السمين يلف راسه عمامة يرتدي الصديري تحته فانلة مفتوحة الصدر وسروال الصيادين الواسع المنتفخ وكأنه زوربا الإسكندراني " سيد حلال عليه " يمشي في الشارع يطوح زراعيه كأنه فتوة من فتوات بحري . يلقي التحية على الجميع بصوت مرتفع بينما الجمع مشغول بمشاهدة التلفزيون الملون الجديد . يجلس بجواري يطلب الشاي في كوب صغير كعادته فهو كثير الشرب للشاي رغم تحطيه السبعين ، يضع أمامه علبتين سجائر كليوباترا أحدهما مفتوحة لا يمر وقت كثير بين تدخينه سيجارة وأخرى ، يضع رجلا على رجل في الأطة ينفث الدخان ويحتسي الشاي . نزعت النظارة الطبية عن وجهي وأخرجت سيجارة ، ولما رأيت في عينيه الرغبة في التدخين قدمت له واحدة فتناولها بامتنان ، أشعلها وسحب نفسا ثم نفث دخانها . بيتسم لي فيبرز لمعان السنيتين الفضيتين من بين أسنانه :

- فكرتني بالغندقلي أفندي (قالها باسما)

فقلت (وهل هذا مدح أم ذم) افتر ثغره ، وترك كوب الشاي ، ورجع بظهره ليسنده على ظهر الكرسي :

- كان هذا من زمن بعيد .

- احك لي .

فإذا بالتيار الكهربائي ينقطع في الشارع كله لتنفجر الآهات تحسرا لانقطاع إرسال التلفزيون الملون الذي اشتراه المعلم " عبد اللطيف الصمطي " ليجذب المزيد من الزبائن إلى مقهاه ، فقد كان يعمل في دولة الكويت لسنوات ، وعاد ليفتح تلك المقهى ، وهي الوحيدة التي بها تلفزيون ملون كبير يبلغ 21 بوصة ، يضحك " قدورة " بلا صوت يظهر ذلك من لمعان سنتيه الفضيتين الذي أضاء في وجهه ، يسعل سعالا خفيفا فيقول

- الغندقلي أفندي كان مديري في الشغل (بضحكة ساخرة قالها)

- أكيد كان مديرا مؤذبا

- أيام وراحت لحالها

- وما عملك يا عم قدورة

- جايلك في الكلام

(2)

استندت بظهري وألقيت بمسامعي إليه فقال :

- كان أخي " سعد " يبيع الحلاوة العسلية ، ولديه عدد من الماعز يربيه حتى كان يوما إذا به يناديني وكان المؤذن قد انتهى لتوه من آذان المغرب : (تعالى دور معايا على الجدي دخل إلى خط النار ولم يخرج) قالها بعنف وكنت في الثامنة وهو يكبرني بعشر سنوات

- خط النار كلها عفاريت وأنت تعرف أنهم يدفنون فيها قتلى الحوادث المجهولين ومعهم كمان ريا وسكينة أخاف عفاريتهم تطلع لي

قلت ذلك بخوف فإذا بكفه تلسع خدي ويسبني (هتدخل تطلع الجدي يا هطلع دين * ...) زاعقا قال

- وماذا بعد يا عم قدورة

- ما باليد الحيلة ، توغلت في أرض خط النار فوجدت الجدي ، هرولت إليه ورفعته لصدري والجدي يماماً ، وما إن خرجت لأخي الذي ينتظرني خارج السياج حتى وجدت نفسي أحتضن ذراعي فارغة ولا وجود للجدي فصرخت ، وانطلق أخي جريا وأنا وراءه حتى وصلنا للعمار ، وهنا أفقت فوجدت أمي تضع لي الكمادات وترقيني وحولها النساء كل بكلماتها (طاسة الخضة أحسن علاج - رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك - الواد لابسه عفريت نجيب له الشيخ وهبة - ولا صلتش على النبي - ده راجل مبروك - اعلمي له لبخة - رقيتك واسترقيتك بالصمدية وقل أعوذ برب الفلق - يصبح زي الفل يا أم سعد - ومن شر الوسواس الخناس - اسم الله عليك يا حبيبي)

يدخل الجار البدوي عم " شيختير " فينصح الأم بأن تدخل " جدورة " المدرسة هكذا ينطق اسمه بالجيم المضمومة على خلاف الجيران الذين ينطقونه " أدورة " بالهمزة المفتوحة

- المدرسة تابعة لجمعية العروة الوثقى الخيرية وسيدخلها " جدورة " بالمجان لأنه يتم

تبيع الأم خلخالها الفضي الضخم لتشتري لقدورة بزة جديدة وطربوش وحذاء ، وكانت المرة الأولى التي يلبس فيها قدورة حذاء ؛ فقد عاش سنواته الثمانية حافيا يلبس جلبابا قصيرا دون سروال ، وفي الصباح

(3)

يطرق عم شيختير البدوي باب الكشك الصفيح فتخرج

" جليلة " يمتلئ وجهها بالسعادة وفي يدها قدورة بالبزة والطربوش ، يتعثر قليلا في مشيته بسبب الحذاء الجديد الذي يلبسه دون جورب ؛ فتلك المرة الأولى في حياته التي ينتعل فيها حذاء ، يمشي عم شيختير ممسكا بيد قدورة إلى باب شرق ليركبا الترام ، وما إن تحركت الترام حتى تشبث قدورة بجلباب عم شيختير خوفا من الترام التي طالما سمع من أمه وجاراتها أنها تأكل الناس تحت عجلاتها إذا صدمتهم أو سقطوا منها ، وما أن وصلت الكهرا كما كانت الناس تسميها آنذاك إلى شارع السبع بنات فينزلان منها ، وقدورة ممسكا بجلباب عم شيختير ، يخطف عينيه حركة الكارو ذات العجلات القصيرة تجرها البغال والحمير والمحملة ببالات القطن القادمة من ميناء البصل والحناطير التي تجرها الخيول منها المسرعة ومنها المتباطئة يسمع إيقاع حدواتها على البازلت الأسود ، وفي المدرسة يفتح لهم عم سعيد الفراش باب المدرسة يصعد الدرج الرخامي تصطف على جانبه أصناف الزرع الأخضر ، يمشي على بلاط قد رسمت عليه زخارف نباتية ملونة يراه للمرة الأولى في حياته ؛ فهو يسكن مع أمه في أكشاك من صفيح يغطي سقفها الخيش المقطرن وأرضيتها رملية ، وأمام الباب الخشبي العالي يطرق عم سعيد الفراش الباب ويدخلون لحجرة الباش كاتب ذات السقف العالي والأرضية الخشبية وإلى المكتب الكبير يجلس الباشكاتب يعتمر طربوشا وقيصا أبيض له أكمام سوداء ، يقف قدورة بجوار عم شيختير أمام مكتب الباشكاتب الذي رفع عينيه عن الورق المكس أمامه ، ودار حوار بينه وبين عم شيختير بينما انشغل قدورة منبرا بما تراه عيناه في حجرة الباش كاتب ، ويسجل الباشكاتب بيانات التلميذ الجديد في سجلات المدرسة فيكتب اسمه كما سمعه من عم شيختير " جدورة " بالجيم ، ومن يومها صار ذلك اسمه في الأوراق الرسمية والذي صدرت به شهادته الابتدائية ، كان الأفندية ينادونه " جدورة " وهو يعتقد أن هذا هو النطق الصحيح لاسمه فلا يمكن للمعلمين أن يخطئوا في كتابة اسمه أو نطقه ، وصار تلميذا في المدرسة واعتاد ركوب الكهرا دون خوف واستمرت الحال حتى جاء يوم أعلن فيه الناظر " فهمي أفندي جبر " إقامة يوم رياضي ؛ فطلب " عثمان أفندي سرور " مدرس الألعاب من كل التلاميذ خلع بزاتهم والوقوف صفا

بالشورت والفانلة الداخلية (قالها زاعقا كالمعتاد) فانصاع كل التلاميذ للأوامر إلا " جدورة " لم ينفذ لأنه إن خلع بزته لا شيء تحتها يستر عورته ، يكرر عليه "عثمان " أفندي الأمر (اخلع هدموك يا بغل) قالها غاضبا وجدورة لا ينطق ببنت شفه فيضربه بالخيزرانة وجدورة يتحمل ألم الضرب فهو عليه أهون من فضيحتة أمام التلاميذ إن عرفوا أنه يرتدي سروال بزته على اللحم ، لم ينقذه من الخيزرانة سوى وصول الناظر " فهبي أفندي جبر " والذي استدعى عثمان أفندي (دقيقة من فضلك يا عثمان أفندي) بحزم قالها الناظر فهول إليه عثمان أفندي يهنم بزته ويستعدل طربوشه واصطحبه معه الناظر إلى مكتبه ، وهنا ضرب عم " سعيد " الفراش الجرس ؛ فارتدى التلاميذ بزاتهم واعتمروا الطرايش ، واصطحبهم الشيخ " حسن عبد الأول " معلم اللغة العربية إلى الفصل ، وكان جدورة ذكيا عرف عنه جمال خطه ومهارة المطالعة والإنشاء إلا أنه كان في الحساب متوسط المستوى وهو ما كان يتسبب دوما في ضرب " حافظ أفندي ياقوت " مدرس الحساب له بالخيزرانة مما زاد في كرهه لحافظ أفندي وحصه الحساب ، ومرت السنوات الأربعة وحصل جدورة على الشهادة الابتدائية وقد ذيلت بعبارة " يعمل بها كمسوخ للتعينين في الوظائف الحكومية وغير الحكومية " ، ظل جدورة مع أمه يرمى أغنامها ، يسعد أيما سعادة إن طلب أحدهم من أمه أن يكتب " أدورة " له رسالة يرسله لذويه ، وكانت بطنه تمغص عليه ويشعر بالغثيان إن طلب منه عم شيختير إجراء عملية حسابية ما بعد بيع بعض الماعز للصاوي الجزار ، وقد كانت أكشاكهم الصفيحية على مقربة من خط النار والذي يجده من الجهة البحرية معسكر للعساكر الإنكليزي في الأرض الرملية الشاسعة الموصلة لشط البحر عند مقام سيدي محمد الشاطبي

- أين خط النار هذا يا عم قدورة

- مكان كلية الهندسة الآن

- ياه .. وماذا بعد يا عم قدورة

(4)

وفي يوم أسود توارت فيه الشمس وتبعثرت السحب الداكنة في صفحة السماء وعبثت الرياح الباردة بالرمال ، كان جدورة يلاعب تيسا كبيرا يناطحه بكفه والتيس يعدو إليه فيمسك بقرنيه يلوي رقبته ويوقع به أرضا ثم يتركه ويعيد الكرة ، فإذا بثلاثة جنود إنكليزي ينادونه ، فيقف أمامه أحدهم يلبس بلوفر صوفي فوق قميص كافي ويرتدي سروالا وحذاء أسود وبيريه أحمر مثل وجهه يلوح بقبضتي يديه لجدورة قائلا (بوكسينج) يقولها الإنكليزي بحماس وقدورة فاغرا فاه بضحكة بلهاء لا

يفهم معنى " بوكسينج " فقط يردد (يس سير .. يس سير) فهو لا يعرف غيرها من الكلمات الإنكليزية فيمسك العسكري الإنكليزي بكفي جدورة يطبقها ويشيح في وجهه ففهم جدورة أنه يريد منه أن يفعل مثله وما أن قبض على كفيه ومدهما كما يفعل الإنكليزي فإذا بالعسكري يلكمه بقبضة يده لكمة قوية تطيح به أرضا ويفقد سنتين من أسنانه وتفتح له جرحا قطعيا في شفته العليا التي تورمت في الحال فضحك العساكر الإنكليز بينما أعطاه هذا العسكري نصف ريال فضة وهو يريت على كتفيه قائلا له : (آم سو سوري) وجدورة يتحسس جرحه يمسخ الدم وما إن نظر لنصف الريال حتى ابتسم ابتسامته البلهاء ومضى العساكر في اتجاه باب شرق حيث ترام المدينة ربما عندهم مسامحة لقضاء بعض الوقت في بارات السبع بنات أو قضاء ليلة حمراء في بيوت " كوم بكير " وهذا سر السنيتين الفضييتين في فم قدورة حزنت جليلة لما أصاب قدورة فطلبت منه أن يبحث عن وظيفة بدلا عن رعي الماعز وذات يوم يتوجه قدورة إلى البلدية في " سيدي أبو الدرار " ومعه شهادته الابتدائية وكان في الساعة عشرة وتقدم بطلب وظيفة فهو متعلم ومعه ابتدائية وبالفعل تم تعيينه " كناسا " وتسلم العمل في شارع لاجيتيه في حي الإبراهيمية " حي الخواجات " وكان سعيدا بعمله في حي الخواجات حيث نظافة شوارعهم والتي لن تحتاج منه مجهودا كبيرا كما أنه حتما سيحصل على بقشيش من أصحاب المحلات التجارية من الخواجات ، فكان يشتري من البقشيش الأنشوجة والجبنة الروكفور وخبز فينو من مخبز الخواجة " استاولوا فينو " ، فقد أكلهم ذات مرة عند الست " ببا " التي تسكن في القبلا الصغيرة على مشارف شارعهم وتعمل حكيمة في الاستبالية اليوناني في الحضرة ، ويجلس على الرصيف ويأكل ما لذ وطاب ، لا ينغص عليه حياته سوى الباش ملاحظ الذي يصل راكبا دراجته الأميرية يرتدي بزته الكاكي ذات الأزرار النحاسية يزينها الهلال يحتضن النجمات الثلاثة ، وهو يعرف بأمر البقشيش ويطمع أن يعطيه قدورة ولو ثمن علبة دخان " كوتاريللي " ، ولكن جدورة يرفض أن يعطيه شيئا ؛ فيقدم الباش ملاحظ تقريرا سيئا عن جدورة للغندقلي أفندي مدير المنطقة ، والذي بدوره يستدعي جدورة للتحقيق معه فيما ورد في تقرير الباش ملاحظ عن تقصيره في العمل فكلما يمر عليه يجده جالسا على الرصيف يأكل تاركا مكنسته إلى جواره ، ينزع الغندقلي أفندي نظارته الطبية عن وجهه ويخرج سيجارة مكنة ماركة " هوليوود " يشعلها ويأخذ نفس دخان وينفته ثم يسأل جدورة عما جاء في تقرير الباش ملاحظ

- هو رجل ظالم ويريد أن يأخذ مني كل يوم علبة دخان أناوة

- أنت مستخدم مهممل وتحدث عن رئيسك في العمل بوقاحة

ويستخدم الحوار وتعلو الأصوات ؛ فيقرر الغندقلي أفندي توقيع الجزاء على جدورة ونقله إلى كشك حراسة مقلب الزبالة عند ترعة الفرخة ناحية محرم بك

(5)

يجزن جدورة أشد الحزن لهذا النقل التعسفي ، ولكن كبرياءه يعينه على التحمل والتظاهر بعدم الاكتراث لتوقيع الجزاء عليه وقرار النقل لمقلب الزبالة عند ترعة الفرخة ومكانها شارع قناة السويس الآن ؛ حتى لا يشمت فيه الباش ملاحظ والغندقلي أفندي ، ولكن ليس ذلك كل شيء ، المشكلة الكبيرة أن الحراسة في ذلك المكان النائي الخالي من الناس بالتناوب أسبوع يعمل في النهار ولا ضير في ذلك فقط رائحة الزبالة النتنة خاصة في أيام الصيف ، القلق كل القلق في أسبوع العمل الليلي خاصة أيام الشتاء وهو ما حكاه له زميله في المناوبة " محمد مهنا " ذلك الرجل ضئيل الجسم باسم الثغر دوما (المكان مسكون بالعفاريت) بضحكة عالية قالها لجدورة ، ولا يعرف زميله " محمد مهنا " أنه بذلك يجدد على جدورة ذكريات خط النار الأليمة التي تصيبه بالغيثان ، وظل الشغل الشاغل لجدورة أن يقنع أحد أصحابه في كل مرة ليصحبه ويقضي معه الحراسة الليلية ويغريهم بأن الشاي والدخان على حسابه وبذلك نجح جدورة في تخطي أسابيع الحراسة الليلية ، وذات يوم بارد من أيام الشتاء القارص اتفق مع " علوان " ابن عم شيخخير ليرافقه في تلك الليلة ، وما أن وصل علوان حتى جمع قطع خشب وأشعل فيها النار حتى طقطق الخشب في المنقد وأعد الشاي الثقيل سكر زيادة ، وناوله جدورة سيجارة مكنة ولم تمر سوى ساعتين ولم تدخل العتمة بعد (أنا تعبت يا جدورة أنا مروح يا عم مش قادر الجو برد) بتخاذل قالها علوان ومضى ولم تفلح توسلات جدورة وحيله في إقناع علوان بالبقاء معه طيلة الليل ، يدخل جدورة إلى الكشك الذي لا يتسع سوى لشخص واحد يجلس على عارضة خشبية تتوسطه له باب وفتحة عن يمينه وأخرى عن يساره لا تزيد عن الشبرين ، ويغلق الباب عليه ينظر إلى الظلام الدامس من الشباك الصغير للكشك من جهة اليمين مرة ومن جهة اليسار مرة ، ويشعل السيجارة تلو الأخرى لا تحترق أذنيه سوى خشخشة القوارض في أكوام الزبالة المكدسة في الخلاء ونباح الكلاب وقيق الضفادع الذي يصل إلى مسامعه من الهيش المكدس على جانبي ترعة الفرخة ، يركن رأسه فيغفو قليلا ، ينتفض على صوت الباش ملاحظ يناديه ليوقع له على الكارثة فيثبت وجوده في عمله ؛ يخرج من كشك الحراسة الخشبي مهرولا فلا يجد أحدا ، يتلفت حوله لا أثر لإنسان ، يفرعه صوت باب الكشك يرتطم بفعل الرياح يشعر جدورة بأنفاس وكأن أحدهم بجواره يقشعر بدنه يجري على باب الكشك يشد الباب فلا يفتح وكأن أحدهم يمسك الباب يجذب الباب بشدة فإذا برجل أسود برأس كبير وشعر كث يخرج لسانه

الأحمر بطول ذراع يلحق به وجه قدورة الذي صرخ وسقط على الأرض في الزبالة والوحل فهض
مفزوعا وأطلق ساقيه للريح يكاد قلبه أن ينفجر حتي وصل إلى مخزن التورماي .

(6)

- وماذا بعد يا عم قدورة ؟

- أفقت فوجدت أمي تضع لي الكمادات ترقيني وحولها النساء كل بكلمتها (طاسة الخضة أحسن
علاج - رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك - الواد لابسه عفريت نجيب له الشيخ وهبة يا
ناس - ولا صلتش على النبي - ده راجل مبروك - اعملي له لبخة - رقيتك واسترقيتك بالصمديّة
وكل أعوذ برب الفلق - يصبح زي الفل يا أم سعد - ومن شر الوسواس الخناس) يدخل جارهم
البدوي عم " شيخخير " فينصح الأم بأن تزوج قدورة (هذا دواه) قالها عم شيخخير بكل ثقة
تقتنع الست " جليلة " وتبيع الكردان الذهبي لتشتري سريرا نحاسيا وكنبه عربي وطبليّة خشب
وتستأجر أودة بحمام شرك في منزل عوف الفطاطري وتزوج قدورة من " ذكية " ابنة خالته رغم
حبه لـ " فاطنة بنت جمعه البقال " فوافق فورا على " ذكية " عندما علم من أمه أن " فاطنة
بنت جمعه البقال " صلعاء

- وفجأة عاد التيار الكهربائي (هيبويه) علت بها أصوات الناس يشاركهم عم قدورة الفرحة ويفتح المعلم
عبد اللطيف التلفزيون الملون يصفق معظم رواد المقهى تتعلق أنظارهم به يتابعون بفرحة أعنية
الإعلانات (محمود إي دا يا محمود)

- وبذلك انحلت عقدتك يا عم قدورة وعشت في تبات ونبات وخلفت صبيان وبنات وصار اسمك
(قدورة أبو العيال)

- طبعا لأ .. أنا تجاوزت أربع مرات ومخلفتش عيال .

- لماذا !!؟ (قلتها بحيرة واندهاش)

بابتسامه بلهاء يضع قدورة رجلا على رجل ينفث دخان سيجارته بكل الألة :

- انت نسيت خط النار .

بينما يجلسٌ وحيد في غرفته يبحث عن الاسترخاء والأمان لمزاجه المتقلب . تعبتُ أصابعه بمفتاح الراديو فإذا بصوت محمد عبد الوهاب يشدو:

عندما يأتي المساء .. ونجوم الليل تُنثر.

اسألوا الليل عن نجمي .. متى نجمي يظهر .

بكلمات تلك الأغنية الكلاسيكية تلهو شفتاه ؛ تأنس روحه بأنغامها العذبة ؛ خجولٌ يعتاد الوقوف على ضفاف الحياة بصحبة صمته مثل بركة مياه راكدة ؛ مترفعٌ يرضيه دوماً أن يكون مشاهداً فقط . يخشى أن يخوض غمار الحياة . متحفظٌ يفضل ألا يقحم نفسه في أي أمرٍ ؛ مخافةً أن يضيع وقاره ، لا يعترف بأن الحياة يظفر بها من يخوض غمارها . رغم كل سنين العمر التي قضاها مشاهداً في صحبة الصمت ، لم يفكر أن يخوضها ويشق أمواجها ولو مرة واحدة ، مقتنعاً أن في ابتعاده نجاةً لنفسه . مع صمته المعتاد يهوى السير في طرقات تتوشح سواداً إلا من أضواء خافتة قد انعكست على مياه افترشت أرضيتها في الليالي المطيرة ، يستحث الوقت المتثائب ، يركب سهوة الخطى العرجاء . في بيته يجتبي في حِصن فراشه البارد ، تركض أفكاره في رأسه ركض الخيل يهشها حديث نفسه بعصاته الغليظة . ينتفض ليخرس الحديث فتسكن الأفكار . بابتسامته البلهاء يعانق الصمت . يكتفي بمشاهدة الحياة من على ضفافها . يمد يده ليرفع صوت المذياع ، تعود شفتاه تلهو بكلمات تلك الأغنية الكلاسيكية . تأنس روحه لأنغامها العذبة . تفتّر شفتاه عن ابتسامه بلهاء ، وإذ فجأة ينقطع التيار الكهربائي ؛ يحتضن الظلام الصمّ . يلتقطٌ وحيد عودَه يضمه إلى صدره يعزف بريشته على الأوتار ؛ يغني :

لم أجد في الأفق نجماً واحداً .. يرنو إليّ .

هل تُرى يا ليلٍ أحظى منك .. بالعطف عليّ .

26- يوم قابلت نجلاء فتحي

ما أن دقت الساعة السادسة صباحاً حتى هرعت أسرع في أداء طقوسي اليومية استعداداً للذهاب للعمل . فقد وصلني بالأمس إخطار بالندب في إحدى مدارس قرى ضواحي مدينتي الساحلية ، ولزاماً علي أن أسرع كي أتمكن من الوصول مع بداية اليوم ؛ ركبت إلى محطة مصر ، وهناك لم أستغرق سوى دقائق حتى عثرت على الميكروباص الخاص بهذه القرية . مضت دقائق حتى بدأ

التحرك ، وعلى الطريق الدائري يدلف بنا السائق بعد نهاية الكوبري ليستلم طريقاً ضيقة يعلو جانبيها ركام ردم من مخلفات أبنية مهدمة ينبت من خلاله البوص . تعج الطريق بكلاب ضالة منها الأجرى ومنها من سلم من الجرب ، وإذ فجأة تطرق فتحات أنفي بعنف وبغير استئذان رائحة نتن لا تطاق . ألتفت حولي ؛ فترصد عيني لافتة مكتوب عليها (مصنع السماد العضوي) ؛ توالى الدعوات على لساني أن يسرع السائق حتى تختفي تلك الروائح النتنة ، ولما انقضت الدقائق بدأت الرائحة تخف فاستلم السائق طريقاً مزدوجة بالكاد تستوعب سيارتين متقابلتين إن سهيت وأسندت ذراعك على حافة النافذة تصدحها السيارة المقابلة . عن يمين الطريق أرض زراعية وعن يسارها مصرف ، ومن محاسن تلك الطريق أنك تداوم فيها على نطق الشهادة ، وفي نهايتها تدلف السيارة بنا إلى طريق تتسع قليلاً على جانبيها حقول تليها خرابات ثم بيوت تحتها مقاهي ومحلات من كل صنف . قد حفر أوسطها من أجل تركيب مواسير الغاز بغية تطوير القرية ، ولكنهم بعد أن ردموها تجاهلوا رصفها مما يجعل أحشاءك لا تستقر في مكانها لاهتزازات الميكروباس ، وعندما وصلت غادرت الميكروباس أتحمس جسدي لأتأكد أن كل أعضائي في مكانها مستقرة ، وعلى يمين الطريق مصرف متاخم لسور المدرسة التي انتدبت لها لسد العجز في المعلمين بعد توقف التعيين لسنوات طويلة والزيادة السكانية التي أدت إلى كثافة التلاميذ . في حين تقل أعداد المدرسين كل عام ، ومن الباب دخلت لأحضر الطابور الذي به حوالي ثلاثة آلاف طالب وما لا يتعدى العشرين معلماً بين مدرس وإداري ، وانصرفنا للفصول للعمل - بنى ومناول - تنتقل من فصل لفصل كل حصة لسد العجز ، ويضرب جرس الفسحة فلم أغادر الطابق العلوي الذي كنت فيه ؛ مخافة أن يسقط تلميذ ، وفي الفناء يلهو الثلاثة آلاف فيعلو الغبار؛ يحجب الرؤية فترى التلاميذ كأنهم أشباح بين الضباب ، وإذا بعيني تسقط على تلميذ يضع كيس شيبسي فارغ في كفه ويمسك بفأر ميت من ذيله يطارد به أقرانه . يح صوتي وأنا أناديه لأنها عن ذلك فمن يسمعي ؟ هرولت لأسفل فإذا بالسيرك الذي نصبه قد انفض وذاب في طوفان التلاميذ ، وكانت عن يساري الحنفيات التي لا تزيد عن عشر حنفيات لا أكثر لهذا الجيش العرمرم من التلاميذ ، وقد أخذ بعضهم يثقب زجاجته البلاستيكية ليستخدمها كمدفع مياه في وجه أقرانه. بينما يفتح بعضهم أغطية زجاجاتهم ليرش بالماء من يرشه. انتهى وقت الفسحة بحمد الله دون حوادث ، وعلى السلام تصعد التلاميذ منهكين فمنهم من يلوك طعامه ببطء ، ومنهم من يلتهم بقية كيس الشيبسي بنهم وشراهة ، ويمسح فمه بكفه أو كم قميصه ، وفي الفصول هذه المرة رائحة مصنع السماد العضوي تعود مضاعفة ، وسرعان ما أدركت السر ؛ فأغلب التلاميذ ينزعون أحذيتهم مكثفين بالجوارب التي امتزج عرق القدم فيها بماء الحنفيات مع ارتفاع الحرارة فإذا بي قد

عدت لأشم رائحة مصنع السباد العضوي ، وفي نهاية اليوم نصطف جميعا لضمان خروج التلاميذ في سلام فقابلت معلمة خاترة القوى فقلت لها :

- تخيلي . أول يوم لي في الندب واشتغلت أربع حصص متتالية في نفس الفصل .

فأجابني بصوت يح بالكاد تبينته :

- يا بختك . فصل واحد . أنا قضيت اليوم مع فصلين . أشرح هنا شوية وأجري على الفصل الثاني أشرح شوية . مش باين عليا ؟

فإذا بتلميذ صغير ينزل السلام بالجورب دون حذاء . على ما يبدو أنه ممن خلعوا حذاءهم من بعد الفسحة ، وقد نساه في الفصل عند الانصراف ؛ فناديت مشرف اليوم لأنه ، وقد كان واقفا يتابع انصراف التلاميذ وفوقه بانر كبير فيه صورة العالم المصري أحمد زويل مكتوب تحت الصورة « رسالتنا صناعة جيل قادر على التفكير والإبداع » .

أما عن نجلاء فتحي فهو اسم المعلمة التي كانت تشرح لفصلين في آن واحد .

27 - حديث المدينة

على رأس الجسر الذي يقطع المصرف ليربط الطريق الوحيدة ببعضها مضي كثير من الوقت ؛ ينتظر الأستاذ صابر أية سيارة تقله للمدينة ؛ فليس ثمة سبيل آخر يعيده للمدينة سوى تلك الطريق الممتدة عبر الزراعات يخرج لها قاطنو تلك القرى المتناثرة على حافة الطريق ليركبوا ميكروباص يوصلهم للمدينة . يصل الميكروباص يندفع الجميع ليفوز بأي كرسي شاغر . تصادف وقوف الميكروباص أمامه لينال ثمرة صبره - كرسي شاغر في آخر الميكروباص - وما أن وضع قدمه حتى انطلق السائق كاد أن يقع فوق الركاب ؛ تلقفته أيادهم قبل أن يسقط ؛ يشكرهم ، ويجلس قابعا في الكرسي . يناول من أمامه الأجرة لتصل للسائق المشغول عن الطريق بفتح الراديو ؛ تنساب لمسامعه كلمات من مقدم البرنامج :

- ومعنا فضيلة الشيخ ليجيب على سؤال المستمع الكريم

فيعلو في أذنيه صوت من بجواره متحدثا :

- يا باشا لا أحد يستطيع خداعي . لقد استطعت أن أجعله يوقع العقد دون أن ينتبه للشرط الجزائري . نعم فعلاً هو يتصل بي منذ الأمس وأنا لا أرد عليه .

يدير رأسه للنافذة فيلمح دموعاً حارقةً في عين فتاةٍ على قدرٍ من الجمالِ تهمسُ في هاتفها ؛ يدفعه فضوله فيرهفُ السمعَ لتتضح بعضُ كلماتها :

- أرجوك امسح الصورَ من على تليفونك . هل ذلك جزاءٌ ثقتي فيك . إن أصريت على طلبك هذا سوف أنتحر .

يلطمُ أذنيه صوتُ امرأةٍ :

- العيش في الفريزر والفاصوليا عندك سخنيها حتى أعودَ من شركة الكهرباء . صوتك يقطع قفني في مكانٍ فيه شبكةٌ . لأ طبعاً . الفاتورةُ بثلاثمائةٍ وسبعين جنياً .

يخالطُ صوتَ المرأةِ صوتٌ من تجاوزها وتحملُ على حجرها رضيعاً :

- حرارته ثمانٍ وثلاثون ولا تنخفض . ربنا يسهل . إن جاع الأولادُ غديهم .

تتحدثُ إحداهن لمن تجاوزها :

- اشتريت البيضتين بعشرة جنياتٍ .

- ربنا يرحمنا .

أحدُ الركابِ بغضبٍ :

- باقي الحساب يا أسطى .

- يا عم شوية صبر . لا يوجد فكة .

يكادُ السائقُ يصطدمُ بسيارةٍ مقابلةٍ ؛ ينبعثُ صوتُ إحداهن في الكرسي الأمامي :

- انتبه لطريقك .

- هو سواقٌ أعمى .

يرنُ هاتفُهُ ، وبصوتٍ جادٍ يجيبُ :

- أيوة نزل النهاردة .. عارف والله عارف .

تنورُ الألسنة تتقاذفُ منها الكلمات :

- ونرجو في نهاية برنامجنا أن نكون قد وُفقنا في إجابة أسئلة المستمعين الكرام . والله
لأنتحر . على أن نلتقي في نفس الموعد . الكشف في مستشفى الحكومة أرخص لا
تقلق . نترككم في رعاية الله وحفظه . نجيب منين كل هذا المبلغ سأطلب منهم تقسيط
فاتورة الكهرباء . مستمعينا الكرام . الفاصوليا باظت . وحتى نلتقي . أعلى ما في خياه
يركبه . سيدفع الشرط الجزائي ؛ القانون لا يحمي المغفلين يا باشا . لا نقول وداعا .
الكيلو وصل لأربعين جنيهًا نجيب منين . بل نقول . عند أول ماكينة سأصرفه . حاضر..
حاضر... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يعلو صوتُ الراكب :

- الباقي يا أسطى .

- يا عم فلقتنا بالباقي بتاعك . (يقولها السائق بغضبٍ وقد استدار برأسه للراكب)

تصرخُ المرأةُ في الكرسي الأمامي :

- خد بالك ..

على الأسفلت تتطايرُ صفحاتُ الجرائد والملاءاتُ المخضبةُ بالدماء التي تسيلُ على الأسفلت .
تصطفُ عرباتُ الإسعافِ . يتناثرُ رجالُ الشرطة على الطريقِ يوجهون السياراتِ ، ومن نوافذها
تمتدُ الأيدي بالهواتفِ تصورُ . وما أن توقف الميكروباس في محطة وصوله تحت الكوبري حتى
انطلقت الأقدامُ كلاً في سبيلها تسعى ، وذابت الوجوه في خضم المدينة ذوبان الملح في الماء .
يدوبُ معهم صابراً .

28- فرسان ودروع

فوق الجسر يمر الفارس في دروعه الحديدية على صهوة جواده ، وأقفال معلقة تتراكم على جنبات
الجسر المعدنية رسمت عليها قلوب حمراء وحروف أجنبية ، وقطع معدنية تنساقط في البئر تحتضنها
أمان عبثية ، وماء في العلا يرتعد خوفاً يتشبث بالغيوم لا يريد أن يصير مطرا ، وماء تحت الجسر

أهوج يعلو في تهور ثائرا ، والمدينة جاثية على ركبتيها مثل الأم دولاجي ينحرون صغارها أمامها تنتظر دورها في الذبح صابرة . يبحث الفارس عن أعشاش الطيور بعد أن ثارت الريح فاقتلعت الأشجار . يتلمس النور بعد أن اشتدت العواصف فأطفت في السماء النجوم . الفارس يرتدي دروع فرسان العصور الوسطى الحديدية لا لتحميه من ضربات السيوف وطعنات الرماح ولكن لترهب الأعداء وتقذف في قلوبهم الخوف . يمضي في ساحات الشرف يحارب لا تهزمه الجيوش ولا تقتله طعنات الأعداء بل تصرعه آلامه التي تخفيها دروعه الحديدية . تحتها يتمزق جلده . يخفي آلام جسده المثلث بالأوجاع بينما هو فوق الفرس رافع الرأس شاهر السيف يعبر أقواس النصر . يبعث مظهره على القسوة وبث الرهبة بينما في داخل الدرع الحديدي جلود تتآكل وجروح تنزف لا يعلم بها غيره ، يضرب العفن في الجسد الذي يتآكل تحت حديد الدروع . لكنها حياة الفرسان يمضون إلى الحروب تحت دروع قاسية تخفي الآلمهم وأوجاعهم إلى أن يسقطوا فجأة في ساحات الشرف والعزة . لا بطعنة رمح سقطوا وإنما هزمتهم الآلمهم وذلك العفن الذي يزحف على العقول . كان الفارس يتمنى أن يظل طفلا يلهو بالحياة . كان يود أن تحتضن أشعة الشمس الأرض ، وأن يقبل ضوء القمر صفحة البحر فترفع الجبال رأسها إلى عنان السماء . فقط كان يحلم أن يتحرك الحرف الساكن ؛ فتعزف اللغة جملا موسيقية للسلام . بالقرب من الجسر وجدوا جثته مثل رسالة مطوية في زجاجة أغلق فيها بالفيلين لفظتها أمواج البحر . ما من أحد يستطيع أن يقول من ألقاها . لم يتعرف عليه أحد . من الذي بتر أصابعه ؟ من فقا عينيه ؟ من ذا الذي قطع لسانه ؟ وماذا فعل ليستحق تلك النهاية ؟

29- لقاء

ذات مساء وكنت جالسا على رصيف المقهى بناصية الشارع الرئيس ، وبينما ينشغل صديقي بتصوير أثر بعد عين ، وقد أصابته الحسرة لهدم تراث ومحو هوية ثقافية بلا شفقة أو هوادة ، إذا بصبي يافع على أول الحارة الجانبية يتبادل التحية مع قرينه ، يلفها حديث سريع الإيقاع يظلمه رنين الضحكات ، في حين يقف اثنان في الحارة يوشكان أن يتلاصقا غير عابئين بمن يتحدثان ، ولا مكترئين بنظراتي إليهما ، ينساب إلى مسامعي همس صوتيهما ، أختلس النظر ؛ فتبدو لي رغبتها الحميمة مشتعلة . يقتربان بجسديهما أكثر وأكثر . يدفعهما الشبق إلى تجاهل كل ما يحيط بهما ، وإذا بأحدهما فجأة يرفع إحدى رجليه ليبول على إطار سيارة متوقفة بجوار الرصيف ، بينما تتابعه هي غير مبالية بفعلة ، تلصق أنفها بأنفه يهز كل منهما ذيله بشدة ، فيشد أحد الصبية طوق رقبتها لينصرف

بها بعد أن ودّع صديقه والذي أمسك بطوق رقبة الآخر لينصرف به في الاتجاه العكسي ، تعلقو
وجهي الابتسامة فيسألني صديقي :

- علام تبتمسم ؟

- على لقاء لم يتم .

30- مجرد مشهد

والدموع تنهمر على خديها من مآقيا منحدره لا تزيدها إلا جمالا على جمالها يجعلها أكثر فتنة فتلهث
العيون تكشر عن أنيابها طمعا في جسد بض يفوق الوجه روعة وبهاء وبصوت متهدج تجيب :

- أنتظر ابني الصغير

يصفعها صوت فظ

- ممنوع الانتظار هنا . بره من فضلك

الوقت مازال مبكرا والجو بارد . تخلو الطرقات من مظاهر الحياة . تجرها الطريق المبللة بماء
المطر لتمشي وحيدة فيها بين الزراعات المترامية مما يزيد من قسوة الطريق وقلة الحيلة فإذا بالطريق
تنشق عن فقير عقل دميم لسان يسمعها أقذع الكلمات بلا حياء . متطفلا يسألها :

- ما جاء بك هنا ؟

بأهداب بللتها الدموع .

- كنت أسكن هنا والآن أسكن في أقصى غرب المدينة لذلك أنتظر ابني .

يرتدي الذئب فروة الخروف :

- ولماذا تسكنين بعيدا ؟

شعرت لوهلة بالاطمئنان للحديث معه فضلا لحاجتها لقتل الوقت الرهيب فأجابته :

- بعد طلاقي اضطررت للسكن في أقصى غرب المدينة فخالتي المادية لا تسمح بأكثر من

ذلك

يسيل لعبه يعد شبابه ليلقيها على الفريسة المنهكة

- محتاجة فلوس؟

- أشكرك . معي ما يسمح بعودتي مع ابني

- مازال الوقت مبكرا والجو بارد تعالي معي لترتاحي عندي تلك الساعات في دكاني القريب من هنا.

- وماذا تبيع ؟

بابتسامه ماكرة يجيب :

- لانجيري

وأمام الدكان :

- وهل لديك بضاعة جيدة ؟

- اتفضلي بضاعتي مفتحة من كل حته

وفي الداخل يفصح عن نواياه فتجاريه وتطلب منه أن يخلع سرواله وما تحته على أن تنال مائتي جنيه أولا وفي لمح البصر خلع الذئب فروة الخروف لا يستره شيء . تتظاهر بأنها ستخلع ملابسها فتخطف ملابسها وتندفع للخارج تاركة إياه عاريا لا يملك شيئا يستر به نفسه سوى الجورب والبضاعة المفتحة من كل حته .

31- أسير الحرف

ينغلق على نفسه في حجرته طيلة الشتاء لكي يكتب قصائده . يمر بتجارب مريرة . يعتلى الهاوية يكاد أن يسقط فيها . يعيش العدمية أو ربما يتسكع في المدينة يشرد طيلة الفصول ، وأمام البحر يصرخ في صمته الجاثم على صدره . يدخل دائرته المغلقة التي تربط بين إبداعه والحياة . يضع في قصائده كل حنانه وحقده . يتجاوز حدود التمرد في تعرية الواقع القائم . في أشعاره اعترافات يبثها من خلال آلامه ومعاناته وصراعاته مع ذاته والعالم من حوله . بين الحين والآخر يخرج من نفسه ليستريح قليلاً منها . يعجب بالحرف أحياناً ، ويكرهه أحياناً أخرى . في ليله ونهاره يتقلب مناخ حاله حسب الفصول . يجلد نفسه يعذبها لشعور بالخطيئة والذنب لا يفارقه . روحه حبيسة ققم

نحاسي . تتراقص الخمر في القوارير أمامه فيلثم وجنتيها في كؤوس صماء تنقله إلى عالم غير المعتاد ليهرب من واقعه ونفسه فهي وحدها قادرة أن تشعره بالنشوة فيتوهم أنه صار أكثر قوة وابتهاجا . تنتهي معركته مع نفسه بهزيمته فهو المدان منذ الأزل . هو من اختار أن يكون للحرف أسيرا . حيث ابتداءً بالتحليق في السماء اللازوردية وبين السحابات البيضاء ، فاتتهى به المطاف بالهزيمة أمام الحياة والزمن . إلى الحضيض والهاوية يسقط مدحورا . يضحكون من قصيدته حتى ينقلبوا على قفاهم ؛ يسألونه :

- كم تساوي ؟

بكبرياء واهن يجيب :

- الإبداع لا يقدر بمال .

في عنجهية وتعالٍ بلسان حاد النصل :

- ما قصدنا الإبداع . أنت كم تساوي ؟

32 - ترياق الشهر

في كانون الذي طال بقاءه وتحت سمائه الداكنة ، وفي طرقاته الموحلة . يعدو جاهدا ؛ يحاول تفادي الأغصان الحادة المتشابكة التي تتزايد بشدة ؛ رافعا أكف الضراعة أن ينجو من كلاليتها ؛ كي لا تمزق ثيابه الرثة التي كاد طول العهد يبليها ؛ فيفقد ما تبقى من الستر . يصل في نهاية الطريق المعتادة للبئر يفتر ثغره ؛ فالיום سينال ترياقه فيضمن أن يعيد الكرة كل شهر دون أن يفقد ورقة التوت فيتعرى في تلك الأجواء القارصة البرودة ؛ فتمرقه نظرات شامتة تترقب من يقع فلا ينال سوى الخذلان ، وفي تلك المرة جاء الخذلان من البئر ذاتها ؛ فقد وجدها جافة لا قطرة فيها تقيم الرممق ، وحولها نظرائه قد تعرت أجسادهم وخارت قواهم ؛ فترتعد أوصالهم حول البئر ينتظرون أن تنبع بالترياق . خذلتهم البئر وطال الانتظار المقيت ؛ تلهث الألسنة ضارعة بدعاء درويش الإسكندرية (هز الهلال يا سيد) يجهل المنطق سبب تأخر الترياق في حين تبتمس نظرات الشباتة الجاحظة كلما تعرت الأجساد . يمد كل منهم يده لنظيره بجرعة صبر في مرارة الحنظل فتزيد الحلق تشققا وجفافا ، ورغم ذلك يجهدون لينعموا؛ فقد استطاعوا بعد عناء أن يجتازوا الطريق المعتادة شهريا للبئر ، وعليهم أن يتجرعوا الصبر؛ لينالوا ترياقهم ، وإذ فجأة يمد

أحدهم أصابعه المرتعدة ؛ يضغط الزر فيعلو صوت ماكينة البئر فينال أولهم الترياق . تعلو الأصوات ؛ يتزاحمون ؛ يتضاربون ؛ تسيل الدماء تمتزج بالترياق المتناثر فوق أجساد لم تتحمل ففارقت الحياء والحياء .

33- سليم وعبد العليم

الأستاذ سليم لن يحكي لنا قصته بنفسه لكن الأحداث هي التي ستروي لنا ما حدث لسليم مع رفيقه عبد العليم .

ذات يوم يدخل عم ربيع المكتب فجأة وينادي :

- يا أستاذ سليم .. يا أستاذ سليم .. سيادة المدير يريدك الآن

- خير يا أستاذ سليم

- علمي علمك يا مدام نرجس

ينطلق سليم وراء عم ربيع الذي يدق الباب ويفتحة ليدخل سليم على المدير وبعد برهة من الوقت يخرج سليم بوجه جامد لا يشف عن حزن أو سعادة وتحت إبطه ملف أصفر .

- لعله خير يا سليم

- مأمورية غدا إلى سعادة مدير مكتب معالي الوزير

- عليك وعلى فالنتينو الحلاق ؛ يضبطك

- على ضمانتك يا عبد العليم

- أنا عمري قولتك حاجة وطلعت غلط

يذهب سليم لـ " فالنتينو " الحلاق وما أن وصل للحلاق

- منور يا أستاذنا عندي لك صبغة شعر أوريجينال ، واللون الكستنائي يليق عليك

- أستاذ عبد العليم يمدح فيك كثيرا .

وما أن جلس سليم على الكرسي وبدأ فالتينو في تدليك فروة الرأس حتى دخل في النوم كعادته التي لا يعرف علاجاً لها فمذ طفولته ما أن يجلس تحت يد الحلاق حتي يغط في النوم

- تمام يا أستاذنا نغسل الشعر ونرى النتيجة

وما أن انتهى فالتينو من غسيل شعر سليم حتى نزل عليه الصمت وكأن على رأسه الطير وأمام المرأة تجحظ عينا سليم لهول المفاجأة

- ما هذا؟! شعر أحمر .

بصوت مضطرب وابتسامة صفراء باهتة يقول فالتينو

- اللون الأحمر جميل عليك

- أنت مجنون .. غدا عندي موعد رسمي . أدخل على مدير مكتب الوزير بشعر أحمر . خلصني من تلك المصيبة

- الحل الوحيد نحلق الشعر الوحيد كله .

- احلق بسرعة احلق .

يبدأ فالتينو بقص الشعر بالماكينة وما أن أزال الجزء الأمامي من شعر الرأس حتى جحظت عيناه ، وبصوت مرتعش يسأل :

- أستاذنا هو لون جلد راسك أخضر!؟

عبد العليم بجوار سليم في المستشفى :

- حمدا لله على السلامة يا سليم يا خويا

- رأيت ما حدث لي يا عبد العليم؟

- قدر ولطف يا سليم

- الجونار يا عبد العليم

- أنت في حاجة لرحلة تروق أعصابك

وبعد تمام الشفاء تمر أيام ويعود سليم للعمل ، مدام نرجس بصوت هادئ :

- الشركة عاملة رحلة للساحل يوم واحد

- متى ؟

- الجمعة القادمة يا أستاذ سليم التفاصيل في الإعلان

- فرصة يا عبد العليم ؛ ناخذ الأولاد ونصيف يوم في الساحل

- غالية يا سليم يا خويا . فتحي ابن خالتي يعمل رحلة اليوم الواحد بنصف الثمن

- لكن الشركة ستنقلنا في أتوبيس مكيف ونقيم في قرية سياحية شامل وجبة الإفطار .

- رحلات فتحي ابن خالتي بنصف الثمن وكل الكماليات اسمع مني

- طلعت معاه قبل كده يا عبد العليم

- أنا عمري قولتك حاجة وطلعت غلط

- إذا خذ امجزلي لخمسة أفراد

وفي يوم الجمعة خرج الأستاذ سليم وأسرته لمكان التجمع حتى وجد أتوبيس فاخراً جداً فارتسمت على وجهه علامات الفرحة

- ألم أقل لكم عبد العليم عمره ما يقول حاجة وتطلع غلط

- وفجأة تنشق الأرض عن عبد العليم وأسرته تملأ وجهه السعادة

- يا أستاذ سليم تعالى الاتوبيس على الرصيف الآخر .

وما أن رأى سليم الأتوبيس

- هل هذا الأتوبيس سيوصلنا الساحل !!؟

- لا تهتم بالشكل إنه صاروخ على الأسفلت .

- هل سافرت به قبل ذلك يا عبد العليم

- أنا عمري قولتك حاجة وطلعت غلط .

وما أن تحرك الأتوبيس حتى صار كالفرن والجميع يتصبب عرقاً

- نتحمل قليلا يا أولاد . عندما نصل نصيف ونلبط في البحر
- وبينا الأتوبيس في طريقه والرمال على جانبي الطريق تشرق الشمس فتزداد حرارة الأتوبيس واذ فجأة جلبة وأصوات ويتوقف الأتوبيس في الرمال إلى جانب الطريق وقد صارت الشمس في كبد السماء
- انزلوا يا جماعة الأتوبيس تعطل وسنصلحه حالا
- هل يستغرق الإصلاح وقتا كثيرا يا فتحي ؟
- ادع الله يا عبد العليم
- يتوجه عبد العليم لأسرة سليم مبتسما :
- لا تقلق يا سليم يا خويا حالا يصلحونه ونصل للساحل ونلبط في البحر
- أمرنا الله يا عبد العليم
- وتمر الوقت وتشتد حرارة الصحراء الجميع يفرش رمال الطريق يستظل بالشمسي يتصبب عرقا و قبيل الغروب تعود الحياة للأتوبيس فيشوق صوت فتحي سكون الصحراء
- آسف يا جماعة سنعود لبيوتنا فاليوم انتهى
- وفي طريق العودة يخرج سليم رأسه من نافذة الأتوبيس يتلمس الهواء فإذا بسيارة فارهة تمر من أمامه يبرز من نافذتها الخلفية كلب يتدلى لسانه من فمه
- ما بك يا سليم يا خويا
- أتعرف يا عبد العليم . إن هذا الكلب ذهب للساحل ولبط في البحر ويخرج لي لسانه ليغيطني
- .
- تمر الأيام وتنجح مدام نرجس في الصلح بين سليم وعبد العليم لقرب شهر رمضان المبارك ولا تصح القطيعة بين سليم وعبد العليم ، وذات يوم ينتاب سليم الركوند ؛ يشعر بالتعب ربما كان من أثر الصيام ولكن غدا وقفة العيد ، وعبد العليم تغيب عن العمل اليوم ؛ يتصل عليه سليم ليطمئن على حاله :
- ألو يا عبد العليم لم غبت اليوم ؟
- وما سبب دخولك المستشفى ؟

- حمد لله على سلامتك . سأمر عليك بعد انتهاء العمل .
- وما أن انتهى سليم من عمله حتى اتصل على زوجته
- سأتأخر قليلا ؛ أزور عبد العليم ، كان في المستشفى
- حاضر لن أنسى الكعك والبسكويت
- مع السلامة
- وما أن وصل سليم بيت عبد العليم حتى وجده في سريريه يبدو عليه الإجهاد الشديد رغم الابتسامة التي لا تغادر وجهه
- ألف سلامة عليك .. طمني
- وعكة بسيطة .. الحمد لله
- تدخل المستشفى وتقول وعكة بسيطة
- بعد صلاة التراويح قررت الاسترخاء قليلا فحدث ما حدث وربنا ستر والحمد لله
- انتبه لنفسك يا عبد العليم إننا نكبر ولا نصغر
- أنا بخير ، وصحتي بومب
- حمد لله على سلامتك يا عبد العليم
- وتدور بينهما أحاديث هامسة تنحدر إلى الهزار فتتعالى ضحكاتها . ويعطي عبد العليم لسليم هدية .
- إنها مستوردة يا سليم يا خويا
- هل جربتها يا عبد العليم
- أنا عمري قولتك حاجة وطلعت غلط . اسمع مني .. ستدعوني .
- عاد سليم لبيته يملؤه الزهو متخيلاً الأهداف التي سوف يحرزها في المرمى في ليلة العيد كما أكد له عبد العليم
- وفي صباح العيد ، وبعد أن فرغ المصلون من صلاة العيد

- يا عبد العليم .. يا عبد العليم .. كل سنة وأنت طيب

- أخويا عزام وانت طيب عيد سعيد . أين سليم يا عزام يا ألم يحضر صلاة العيد !!

- سليم في المستشفى من أمس جاءت الإسعاف وأخذته كان في حالة إغماء .

عبد العليم مندهشا :

- يا ترى ما السبب !؟

تمر أيام العيد ويخرج سليم من المستشفى ، يجلس سليم وعبد العليم على المقهى كالعادة فالأمسيات لا تحلو إلا بالرفقة الجميلة وبينما تتعالى ضحكاتهم إذا بمدوب مبيعات يحمل حقيبة سوداء كبيرة ترتسم على وجهه الابتسامة في حين يتصبب جبينه عرقا يقاطعها ليعرض بضاعته

- معي عرض مميز شامبو وبلسم وكريم مرطب وشاور جيل . كل هذا بنصف الثمن فقط ؛
شركتنا تقدم خصم 50% على العرض

فينطلق عبد العليم كماذته في الكلام

- عرض جميل وفرصة

- هل جربته يا عبد العليم ؟

- لا .. لكن هي فرصة فعلا ؛ عرض لا يتكرر كثيرا

- أشتري على ضمانتك يا عبد العليم

- أنا عمري قولتك حاجة وطلعت غلط يا سليم يا خويا يقاطعها مندوب المبيعات مبتسماً تبدو على وجهه فرحة غامرة وابتسامة يغلفها الود :

- حضرتك لن تندم ؛ شركتنا رائدة في السوق وبضاعتنا عليها إقبال كبير لعروضها المتميزة إنها فرصة يا افندم

يتدخل عبد العليم في الكلام

- نعم يبدو أنني شاهدت إعلان شركتكم في التلفزيون

يقتنع سليم بكلام عبد العليم ويشترى العرض ويعود للبيت يشعر بزهو وفخر ويكأنه (جاب الديو من ديله) وبينما يستحم فتح إحدى العبوات ليجرها بنفسه فإذا به يكتشف أن كل العبوات تحوي

" صابون سايل " نُصّب عليه واشترى التورماي ، يخرج دون استحمام يكاد ينفجر غيظاً من عبد العليم ، تسأله زوجته :

- ماذا تفعل عند حوض المطبخ يا سليم ؟
- أغسل المواعين .

في اليوم التالي يلتقي عبد العليم السلام على سليم الذي يكاد ينفجر من الغيظ

- من فضلك يا عبد العليم اتركني
- لماذا !؟
- العبوات كلها صابون سايل
- ربنا يعوض عليك يا سليم يا خويا
- أين مدام نرجس ؟
- ألا تعرف إنها في المستشفى ستجري عملية الغضروف
- ربنا يشفيها
- لا بد أن نزورها
- ولكنني حجزت تذاكر السفر
- إلى أين ؟
- سأسافر مع أسرتي إلى بلدي وفرصة نزور آثار الأقصر ونؤجر بالون ونعيش يومين وإن سمحت الظروف سنركب باخرة ونقضي يومين في أسوان
- ومتى السفر ؟
- غدا بمشيئة الله
- إذن نزور مدام نرجس اليوم بعد نهاية العمل
- كنت أتمنى أن أزورها لكن لا بد أن أجهز نفسي للسفر
- كلها نصف ساعة نعمل فيها الواجب
- دخول المستشفيات صعب الآن خصوصاً مع انتشار الكورونا

- أنا سأصرف يا سليم أنا أعرف كل دهاليز المستشفى
- لا نريد أن نتعرض للإحراج يا عبد العليم
- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط

وفي المستشفى سار عبد العليم في ممرات المستشفى خلسة يتبعه سليم يدخل عبد العليم من باب ويخرج من باب وسليم وراءه يسير مسلوب الإرادة وما إن وجد باباً عليه لافتة

- يا عبد العليم اللافتة تقول ممنوع الدخول نهائياً لغير الأطباء وهيئة التمريض
- هذا مجرد كلام حتى لا يستخدم أحد غيرهم تلك المسالك المختصرة .

يفتح عبد العليم الباب عنوة يتبعه سليم . المكان يسوده الصمت وما إن وصلوا للباب الآخر حتى وجدوه مغلقاً بقل ولا يمكن فتحه . مضى وقت طويل يبحث فيه عبد العليم عن وسيلة يفتح بها الباب

- لا بد أن نعود يا عبد العليم
 - معك حق . اتبعني أنا أعرف طريقاً آخر
- وما أن وصلوا للباب حتى قابلهم شخص في ملابس صفراء مثل رواد الفضاء بدهشة يكلمها :

- من أنتما ؟ وماذا تفعلنا هنا ؟
- دخلنا بالخطأ وكنا خارجين حالياً
- هذا عنبر عزل حالات الكورونا

سليم واجبا من هول المفاجأة :

- ألم أقل لك يا عبد العليم اللافتة تقول ممنوع الدخول
- من فضلك أفسح لنا نريد الخروج
- أنتما لن تخرجا إلا بعد حجزكما أربعة عشر يوماً
- والرحلة يا عبد العليم
- ربنا يعوض عليك يا سليم يا خويا .

في حجرة العزل ينادي عبد العليم على سليم :

- يا سليم هل سمعت عن القرض الذي تقدمه النقابة للموظفين . يا سليم .. يا سليم .. هل تسمعني ؟

سليم زاعقا :

- كفاية يا عبد العليم . كفاية . ارحمني .

34 - مسك و بصل

يبدو العالم له رخوا مترهلا . يشعر برائحة نتن زام تخالطه أدخنة الفراغ المقيت يخترق خياشيمه تلح عليه الرغبة في تسلية ما ربما تزيل شعوره بالاعتراب . تلك الجدران الأربعة ليس بينها هواء . كل شيء على الجدران الأربعة حوله جاف خانق . ترقد بجانبه كتب في أكفان عالمه المهترئ . ما أحوجه إلى حجر ثقيل يلتقي في الماء الراكد ؛ يبسط كفه يفرد ذراعه يلقيها في الفراغ ليضع الزمان فيغير مسيره . يقوم مفككا يدوس بأقدام حافية أوراقا قد ألقاها أرضا ؛ فتعلو خشخشتها التي لم تسطع وطأة أقدامه العارية أن تكتم صوتها . ينتعل حذاءه ناسيا جوربيه ، وعلى المقهى يجلس على كرسي في واجهة الطريق ؛ ربما في حركة الشارع ما يبدد إحساسه بالفراغ ، ولكن سرعان ما أدار وجهه عن الشارع ؛ فقد سئم حركاته السخيفة . يدخن سيجارته ببطء يرتشف قهوته في تكاسل وقد وضع رجلا على رجل ، وعلى شاشة التلفاز تطارد مسامعه كلمات لا تكاد تمسك بإحداها حتى تفر أغلبها إلى جمور الفراغ ؛ تعود عيناه للشارع تلتقط حركات النساء لعلها تزيح الملل الجاثم على صدره ولا يرحل . وإذ فجأة تنبعث رائحة المسك تعبق المكان تصحب أنفه عيناه بحثا عن المسك وما أن عثر عليه حتى دبت الحياة في عروقه ؛ فينهض ليصافحه . فإذا بنداء ينعق بصوت قبيح يخيم على الأجواء :

- يا بصل

تهرول الأقدام تتشابك ، وتختلط الأذرع حول بائع البصل . يبحث بائع المسك عن عطره فيدرك أن عطر المسك ضاع في سوق البصل .

35- أوركسترا

في شوارع المدينة العتيقة تنبعث نغمة الناي يائسة متوسلة ؛ صارت الأمانى افتراضية في عوالم قاحلة سقطت عنها آخر أوراقها . أجساد تعرت أيديها خاوية . وقع أقدام ثقيلة تنوء بما تحمل من أوجاعها . كل الوجوه شاحبة لا تجف عيونها ، وضربات قلبها واهنة . لها أفواه مكبلة مكتومة صرخاتها . في طرقات واقعها الموحلة تسير جماعات تلو جماعات يعلوها اصفرار ذبولها . تستغيث تئن فلا مغيث ولا مجير لأناتها . لا أحد يقرأ رسائل الحمام الزاجلة ؛ فالعقول علاها الصدا وعميت أبصارها ؛ يسأل الإسكندر معلمه :

- عندما أبني مدينتي ماذا أفعل بها ؟

أجابه :

- ابعث الروح في ألقانها .

تتوسط مدرجات المسرح الحجرية أوركسترا تعزف أنغاماً أخرى تحيي الأجساد تستجيب لها أرواحها . تبدأ النغمات بدقات مكتومة من الطبول تتبعها الآلات النحاسية و الوترية عازفة . تملو النغمات سريعة متلاحقة ، وكلما تقدم اللحن تزول نغمة الناي اليائسة المتوسلة . في الطرقات تتبع الجماعات بعضها بعضاً في حال زاهية ؛ ارتد البصر للعيون وزال الصدا عن عقولها ؛ تنفض رسائل الزاجل تنفك شفراتها ؛ لتعلن نبوءة النصر .

36- أوبرا حمزة

وأخيراً أخبرته ماكينة الصرف أن راتب التقاعد قد صار متاحاً . إنه حمزة الذي لم يظفر بدفء الأسرة يوماً . وفي مثل ذلك اليوم شهرياً يقرر التجول في المدينة . يتسكع في الطرقات واضعاً كفيه في جيب سرواله قابضاً على راتبه الضئيل يضم الزراعين لجسده يلتمس الدفء . يذم شفثيه يطلق صغيراً بلحن يندندن به ؛ فقد أمضى ليلاً طويلاً يستحث الوقت الأصم أن ينقضي . تنشق الطريق أمامه عن جمال ملحمي لثلاث نساء تبدو كل امرأة فيهن أكثر فزادة تشبه أجسادهن ثلاث نوات موسيقية عزفت كل واحدة منهن على آلة موسيقية مختلفة تصب موسيقاها في أذنيه بلطف تهز مشاعره الراكدة ؛ يتبعهن يستمتع بهذا التآرجح الممتع بين الصحو والنوم وكأنه في أوبرا . وما أن دخلن إلى مقهى الحي الراقي حتى دخل خلفهن . يريض على مقربة منهن يأسره انبعاث دخان

السجاير الفاخرة من بين حمرة شفايفهن المكتنزة . يمسك هاتفه يفتح الكاميرا الأمامية ينظر إلى ملامح وجهه السخيفة يحاول أن يبتسم للكاميرا ربما حلت على وجهه مسحة من الوسامة لكن لا فائدة ؛ فيزيد من ابتسامته محاولا مرة أخرى دون جدوى ؛ يكرر المحاولة تلو الأخرى حتى فتح فاه عن آخره .

بينما في القرية الناعسة تصادف مرور ذئب أضناه الجوع من تحت نافذة كوخ فسمع امرأة تصيح لصغيرها الذي يرفض الطعام :

- إن لم تأكل اللحم سألقي به من النافذة للذئب

فربض الذئب بالجوار يمني نفسه بالوجبة الألد . انتظر الذئب وانتظر ، إلى أن عاد الصياح مرة أخرى ، فأقبل الذئب أمام النافذة ينظر إلى الأم وهو يهز ذيله في حبور .

فما كان من المرأة إلا أن أغلقت النافذة واستغاثت ، فهبت الكلاب تطارد الذئب الذي بات ليلته خاوي البطن متحسرا .

حينئذ يقهقه حمزة بضحكة بلهاء ؛ تنتفض الجميلات في فزع يبتعدن عنه يهرع إليه النادل يعاونه أحدهم يمسكان بذراعيه يدفعانه لخارج المقهى بعنف . تتراشق نظرات السخرية في ظهره العاري . صار العالم الخارجي ينسحب من حوله ؛ فيطرق باب رأسه مونولوج صامت :

- لماذا انتحرت أنا كارينا ؟

37- البالونة

بصر " حافظ " دوما كلما غادر بيته على أن يأخذ معه الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمه شاعرا لاسيما اليوم ؛ فقد نشرت إحدى الصفحات على الفيسبوك قصيدة من تأليفه وعليها صورته فجلس على المقهى المواجه لكورنيش البحر يفتح تلك الصفحة بحيث تبرز صورته لمن يقترب منه فيعرف أنه شاعر مشهور وبينما هو جالس في زهو وفخر إذا برجل في العقد السادس أشقر البشرة يجلس إلى جواره فيعمد حافظ إلى أن يقلب الكتاب لتظهر صورته جلية واضحة للرجل الأجنبي ، وينجح بالفعل في لفت انتباهه فيبتسم له الرجل ابتسامة رقيقة ويومئ برأسه مؤكدا رؤيته لصورة حافظ . يضع حافظ رجلا على رجل وقد انتفخت ذاته . يشير للرجل على صورته ليؤكد أنه هو نفسه صاحب القصيدة وأنه شاعر مشهور ذو مكانة أدبية مرموقة لاسيما أن الرجل فيما يبدو أجنبيا

وتبدو عليه بساطة المظهر وأكد لا يعرف عن الحركة الأدبية الكثير . يناوله حافظ هاتفه وهو يشير لصورته ليرى الرجل صورته على بوست يفيد أنه حاصل على دكتوراه فخرية ولقب سفير للسلام وبجوار اسمه لقب دكتور باللغة الإنجليزية ؛ يعيد الرجل ابتسامته بكل تواضع ولا ينطق ببنت شفه .

تهللت أسارير حافظ ؛ فالآن قد أدرك هذا الأجنبي الساذج أنه شاعر مشهور، وعندما يعود لبلاده ويجلس مع رفاقه سيحكي لهم أنه جلس مع شاعر كبير . انطلق حافظ يتحدث عن نفسه بكلمة إنجليزية من هنا وأخرى فرنسية من هناك ؛ لم يسعفه تعليمه المتوسط كثيرا ، ولكنه يداوم على حضور ندوات الأدباء والمثقفين يسمعون قصائده التي ينقصها الميزان الشعري وفي أبياته كسر وينصحونه بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من القدامى والمحدثين ولكنه يرى في قصائده ما لا يراه غيره ولا يفوت لقاء إلا وأصر على إلقاء شعره ، ويجب أن تناديه الناس بلقب دكتور . يعتري حافظ اليقين أن الرجل أكيد قد فهم الآن ما يقوله . يومئ الرجل برأسه مبتسما . والأنا عند حافظ تتضخم وتغلف حديثه الركيك بينما الزهو يعلو به بعيدا مثل منطاد ممتلئ بالهواء . فحأة يرن هاتف الأجنبي ليغيب بالعربية :

- نعم أنا جالس في انتظارك على المقهى .

وبينا حافظ في دهشته إذ اكتشف أن الرجل ليس أجنبيا يأتي رجل يجلس بجوار الأجنبي يملأ وجهه الابتسامة

- السلام عليكم

- وعليكم السلام . تفضل (رد الأجنبي)

ينطلق الرجل في الحديث مع رفيقه والذي يرد عليه بعربية فصحي . فإذا بالرجل يعتدل في جلسته ليستدير تجاهه مبتسما تعتريه الدهشة :

- هل أنت مصري ؟

يبتسم الرجل الآخر قائلا

- ألا تعرف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أبو المكارم أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها وله عشرات الدواوين الشعرية .

فإذا بطفل يمر من أمامهم على الرصيف يلهو باللونة وخبأة ينبعث صوت من اللالونة :
تسسسسسسسسس .

38- عين الرسام

في المدينة العجوز تخيم العشوائية على الشوارع ، يحفر الجهل بمخالبه غوغائية في مخيالة قاطنيتها قبل عقلهم ، تضيق الأدخنة أنفاسهم ؛ يطبق الحراس على الشاردة والواردة ، يقفون فوق رؤوس ساكنيها، يولد في المدينة العجوز الأطفال شيوفا ، جنازات الأحلام لا تنقطع ، لا شيء يقبله المنطق ، رؤوس طأطأها العوز ؛ فلا تلمح في شوارعها من يرفع رأسه ، تزحف عيونهم تلاصق الأرض ، نفقاً إحداها إن ارتفعت لترى السماء ، وتترك عين واحدة لترى ما يريدون لها أن ترى .
يجلس الرسام على رصيف مقهى ضيقة يملأها دخان يخنق الصدور ، تبكي ذاكرته " أم الضفائر " حبيبة قلبه التي فقدتها يوم رآها كبير الحراس وطلبها من أبيها النحات فلم يستطع أن يرد طلبه ، وذات يوم رفع الرسام عينيه الاثنين يرنو إليها وهي تطل من نافذة قصر كبير الحراس العالي ففقد إحدى عينيه ، فجأة يقطع حبل ذاكرته صراخ معلق المباراة " هدف في الوقت بدل الضائع " ينبعث هتاف يهز المكان ، يطأطي الرسام رأسه ينظر في لوحته بالعين الوحيدة ، ينصرف الجمع ، من له عين واحدة والأخرى مفقوءة ومن ناله الحظ ومازال يحتفظ بعينين ، صامتين تزحف عيونهم على الأرض لا تجرؤ على النظر للسماء ، ينبعث نحيب الناي بأغنية ، تتلقفها أذناه ، تتمم بكلماتها :

- ألف الشوارع
- أتوه في المدينة
- أضيع في المواجه
- وفي دموعي الحزينة
- وفي كل الشوارع
- لا ضاعت مواجه
- ولا هدبت عيون

- كيف حالك يا فنان ؟

- كما ترى بعينيك ، ففتت إحدى عيني ، أبحث عن عمل
- كن مطمئنا ؛ عندي لك عمل .
- متى ؟
- عليك أن تحضر أولا صحيفة أحوال جنائية " فيش وتشبيه " من عند الحراس .
- غدا سأذهب لعملها .
- أراك بعد أن تنتهي منها .

تمر عشرون سنة ، يتقابل الرسام مع ذي العينين وقد بات الرسام كفيفا

- أين كنت يا فنان كل تلك السنوات ؟
- في جبل المغول .
- لماذا ؟ !!

39- الكهف

في تلك البقعة الرمادية من الزمن يحتاج عبد المجيد فقط أن يطيل الوقوف ؛ ليلتقط بعضا مما نساه في رحلة إجباره الطويلة ، لقد اعتاد أن يراقب الغيوم والنجوم ؛ فيزداد إصرارا وتصميما على الهجرة مع الطيور أيا كانت وجهتها ، يحاول أن يملك وسيلة يعبر بها من ضفة إلى أخرى ، أمنيته أن يملك قلبه و ما يشعر ؛ ليحو لحظات غرست ما لا يجب في داخله ، لا يشتهي العبث أو الخروج عن المألوف ، كل ما في الأمر أنه يحاول أن يملك ما يجعله إنسانا من لحم ودم ، يقبع عبد المجيد في كهفه وحيدا ، يتسرب ضباب عمره الرمادي إلى روحه الهائمة كما يتسرب السم في دخان التبغ المحترق إلى دمه ، فصار مثل تمثال معدني ملت العين النظر إليه ؛ علاه صدأ السنين الرتيبة ، طالت به رحلة العمر ، فصار يكتب حروفا من نار قد تطايرت حمما من بركان صدره ؛ تحرق أنامله مثل لفافة التبغ التي لا تفارق أصبعيه ، يكتب كي يحرق ما تبقى من آلامه ، يكتب ليصبح حرا طليقا ، يكتب لنفسه فقط باحثا عما يهز مشاعره ، ويخلق كلماته ، يطلق ناظريه من تحت زجاج نظارته الطبية الثقيلة يخلقان في المكان ، فإذا بهما يحطان على غصن بان يافع تضج منه رائحة أنوثة منفجرة ، تحترق أنفه ؛ تنتفض مشاعر عبد المجيد مثل حمامات تتلجج في شبكة صياد قد عمين عنها فوقن فيها ، ترمقه بعينيها الناعستين فتبعثر أوراقه ؛ تشتهي أذنه حممتهما ، تجرفه مشاعره

وأحاسيسه ؛ يتنحى إدراكه تماما ، يغادر الكرسي يتوجه حيث تجلس وعلى وجهه ابتسامة فلربما استجابت . تحرق لفاقة التبغ ما بين أصبعيه ؛ ينتفض ألما . فإذا به ما زال جالسا على الكرسي في كهفه .

40- شارع الحب

بكل جهده يحاول تفادي حجارة يلقيها عليه صببة يلعبون في الشارع . رجل مشرد يجري منهم حافيا في ملابس ممزقة لا تستطيع أن تجزم بلونها الأصلي . يفتش الرصيف بجوار منزل تهدم يتخذه قاطنو الشارع مكبا لقلوبهم . تدق طبلي أذنيه بعنف طرقات على أنابيب البوتجاز توظف الأموات ، وبأصابع ليس حظها بأحسن من ملابسه يهرش شعره المهوش ، ويتفحص الشارع بنظرات متوجسة . يندفع نحوه التوكنوك يكاد يدهس قدميه في حين تنفجر منه أغنية مهرجانات بينما ينادي بائع الروباكيا :

- بنشترى الكتب القديمة بأربعة جنيه الكيلو وبنشترى العيش البايث بخمسة جنيه الكيلو .. روباكيا

تسرع إليه الصبية يحملون كتبهم المدرسية ليشتريها بالكيلو . تخرق الشارع سيارة ينبعث منها دخان أسود يصحبه صوت الشكمان المزجج ، وحمو السمكري الذي يحتل الرصيف لا يكف عن دق صاج سيارة يصلحه بينما يهرول الصبية خلف صفيحة كنز اتخذوا منها كرة يلعبون بها ، وإذ فجأة ترشق الصفيحة في مؤخرة حمو ؛ يعلو صوتهم :

- جوووووون .

ينبح كلب حمادة زبادي الذي يقف على الناصية يأخذ ممن يأتيه نقودا ليعطيه لفاقة صغيرة يدسها في جيبه ويمشي مسرعا يتلفت حوله . يسب حمو السمكري الصبية ؛ فيوجه له مودي أصبع الوسطى . ينطلق الصبية ضاحكين ومن حمو السمكري ساخرين . يقطع ضحكهم صوت مزجج ينادي :

- بواقي زيت القلية الكيلو بعشرين جنيه .

تتدلى السلال من البلكونات محملة بزجاجات مملوءة ببواقي زيت الطعام المستعمل . تلتقط عينا الرجل المشرد لافتة بالية وسط الركام مكتوب عليها (حسب الله السادس عشر) ؛ يهيم في حضرة الماضي تتجمد فيه مشاعر الحنين لعبق المكان وصمت الشجن ، وفجأة تلقي أم مودي بكيس

الزبالة من البلكونة ليستقط أمام الرجل المشرد فينفجر على الأرض تتناثر منه القمامة . تزعق أم مودي صارخة على سيد البقال :

- ياعم سيد عندك صابون ؟

- الصابون خلص .

ينتفض الرجل المشرد مغادرا الشارع ، وبصوت عال يصيح :

- ناس زبالة .

41- الترام

بدا الإرهاق واضحا على أبو المكارم ؛ بيده المرتعشة يتكئ على عصاه لتعينه على المشي . تسكب الشمس ضوءها على وجهه تنفث لهيبا في حين تزحف الترام العجوز على القضبان بعد أن استباح زحام المدينة وقتها فلا هي واقفة ولا هي على قضبانها تسير . تمر من أمامه متهاكئة شاحبة فيرى بداخلها بقايا أشباح أنهكها تعنت الأيام ، وما أن توقفت حتى أمسك بالعمود الصدئ الذي يتوسط بابها المحطم ليصعد درجتي الباب ، فإذا بالتزام مسرعة ينبعث النسيم اللطيف في ردهة الترام ؛ يأخذه إلى لون الشوارع وطعم البيوت وسحر المدينة ، يجلجل صوت الترام ؛ يرفع أبو المكارم رأسه للكماري فإذا به يجلس في حلة صفراء أنيقة بأزرار نحاسية لامعة يعتمر قبعة نظيفة . يمد يده للكماري بعشرة جنيهات بلاستيكية . يمسكها الكماري يتأملها وقد ارتسمت على قسماط وجهه علامات الدهشة .

- ما هذا يا أفندي ؟

- أريد تذكرة وهات الباقي .

الكماري مبتسما :

- ليس عندي فكة التذكرة بلمين .

يندهش أبو المكارم فإذا بشاب أنيق يقف خلفه يقدم للكماري أربعة مليات .

- تذكرين من فضلك .

يستدير أبو المكارم له فيبتسم الشاب قائلاً :

- لم غبت عن المصلحة اليوم يا أبو المكارم أفندي ؟ لعل المانع خير؟

الدهشة تخرس أبا المكارم لما في الترام من رونق وكأنها خرجت من الفابريكة لتوها . يصحبه الشاب ليجلسا فيلفت نظره نظافة الترام . الركاب جلوس بين مسن مطريش وريفي معمم وشباب حاسر الرأس بعض الفتيات في فساتين زاهية تكشف عن أذرعهن المرمرية ونسوة تغطي أجسادهن ملاءات الف السوداء ، وأصوات هامسة تتحدث في رقي . ترتفع جلجلة صوت آلة تنبيه الترام .

- يا أبو المكارم أفندي (يناديه الشاب)

يلتفت أبو المكارم إليه مندهشا

- تصدق يا أبو المكارم أفندي رطل اللحمة اليوم في التسعيرة بثمانية عشر قرشا ! .

برأس مشوش المنطق والتفكير يسأل نفسه :

- ربما تلك مجرد أوهام وخيالات . لكن ماذا لو كان ما أنا فيه حقيقة !؟

ينظر حوله ورأسه يفور عليه ؛ ينتفض يبحث عن عصاته فلا يجدها ؛ ينطلق مثل شاب في العشرين . تقف الترام يغادرها ، وما أن وطأت قدماه الأرض فإذا بعصاته في يده يتوكأ عليها . يقف على الرصيف ينظر حوله فيجد الطريق ضائعة في تشابكها والتفافها ، والأرض مرهقة ، والأجواء صاخبة ؛ يمشي في بطء يحاول النجاة من صخب الشوارع ليبلغ حافة البحر فيستريح على شاطئه ، ولكنه لا يراه وبخطوات متعثرة يسير باحثا عنه ، وعلى وجهه ابتسامة بائسة :

- أين البحر؟ لا أشم ريجه .

تحت شجرة محطمة يجلس أبو المكارم بأكيا أحلامه التي حطمتها العواصف القوية . لا يؤلمه تقدم السن قدر ما يؤلمه قلب شاخ ، وأمنيات مستحيلة . يبصق في وجه الزمان الذي غير وجه الطفل البرئ إلى وجه شيخ بائس .

برأس ضخّم وشعر قصير غاب عنه كل أثر للسواد ، ووجه ذي ملامح هادئة تعكس روحا ذات حساسية مرهفة ، تسكن جسدا ضخما تحمله أرجل متعبة تستعين على أثقالها بعضا لا تفارق كفا مشربة بجمرة لرقّة جلدها ، يبسط كفه اليسرى يتأمل ما خطه الزمان فيها من خطوط متشابكة تحكي سيرة مثقف متيقظ الذهن مفكر يبدو فائق الذكاء ، لكنه يعيش مغيبا في عصره لا يرى سوى زمن يصير إلحاح أن يضمه إليه بينما يجد نفسه تنتمي إلى زمان ومكان آخرين ، تنجرف الوحدة إلى نفسه التي صارت قاربا بلا مجدفين تتقاذفه أمواجها وكأنها قدره ، لا يطمح إلا لتحقيق حرّيته واستقلاله النفسي في زمن بهت ألوانه ، يلجأ إلى غياهب نفسه ينغلق عليها مع موهبته الخاصة وموسيقاه الكلاسيكية وكتبه بين أبحرة قهوته ودخان تبغّه ، إحساس الوحدة يدفعه دوما إلى مقاطعة العالم برمته إلا أطيافا تخرج له من عالم كتبه يأنس بها يحدثها وتحديثه ، يعتريه الشك أحيين كثيرة عن جدوى حياته بين صفحات الكتب ، في رأسه صراع محموم يمزقه بين الافتتاح على الآخر أو الانغلاق التام على نفسه ولا يرغب أي من هذين التقيضين في مهادة الآخر ، يود أن يجيد اللعبة فيتعلم كيف يضحك ، يحضره دائما سؤال الموت بقوة ليضع حدا للضياع الذي يشعر به في حلقة الحياة الرخوة التي تنزع أوراق الأحبة الواحد تلو الآخر ليجد واقعه أشبه بعشبة واهنة على حافة حقل اشتدت فيه سوق الزرع واستوت ، تعمل في داخله اضطرابات عاصفة وخيبات وآلام يعيشها في الغابة الأسمنتية ، يعاني ليصنع من نرف جرحه ابتسامة في وجه هذا العالم الذي تلاشت فيه زرقة البحر وخضرة الأشجار ، يفتش في خرائب العمر عن سويغات سعادة عاشها ؛ لعلها تضمد جراحه النازفة حسرة على عالم تبدلت فيه كل الوجوه ؛ يعرف جيدا من باعوا ، ورأى من دفعوا الثمن ، قطع في مضمار الحياة أشواطا ركض فيها بلا توقف ، و الآن أوشك أن ينهي المضمار ؛ يعتريه يأس يغلفه الصمت ؛ يقترب وجهه أكثر للحزن منه إلى السخرية ، وخلال لحظة واحدة يأتيه اليقين أن سر شقائه ليس لعب في طبيعته وإنما لفيض مقدرته المبدعة وأن كل منجز أنجزه وكل درجة سلم ارتقاها بل كل شهرة حققها ومال جناه محض سراب يتلاشى ، وبقلم تضمه ثلاثة أصابع على كفه اليسرى يكتب (إلى عمري .. هل كل ما خطه الزمن على كفي يستحق كل هذا العناء ؟) .. يطوي كفه .

43- عم بدر

على أريكته في مواجهة حائطٍ باهتٍ ينظرُ "عم بدر" إلى إطارٍ خشبي يتدلى من زاويته العليا شريط أسود على صورة لامرأة تنطقُ ملامحها بالوداعة يشعُ من عينيها شعورُ انكسارٍ أمام زمانٍ

غلبتها أقداره ، مثله مثل كل البسطاء حلم عم بدر كثيراً أن يعيش بشراً ، تجتاح عواصف الزمن حياته المهترئة ، لا يؤنسُه في عزلته أنيسٌ أو جليسٌ بعد رحيلِ السندِ ؛ تعزفُ على جراحه آلاماً اعتادها ، يتراقصُ واقعه على أناته ، و في ليلةٍ مشابهةٍ لتلك الليالي التي تصرُّ على إيلاّمه ، تباغثه آلامُ الكلى المعتادة ، يتحاملُ على نفسه يستندُ على عصاه ، يعدُّ كوباً ساخناً من الأعشاب ، التي اعتادها من يد زوجته ، تتندى عيناه الضيقتان تنسابُ منها دموعاتٌ يمسخها براحتيه المرتعشة متمماً :

- الله يرحمك يا " نعمة " .

يجلسُ على أريكته ، يتفصدُ جبينه عرقاً ، ترتعدُ فرائضه لشدةِ الألم ، ينظرُ لصورةِ نعمة ؛ فيذكرُ ذلك اليومَ الذي هاجمته فيه آلامُ الكلى فاستند على زوجته ، وذهباً معاً إلى عيادةِ الطبيبِ ، والذي نصحه بإجراءِ جراحةٍ عاجلةٍ لنزعِ حصواتِ الكلى

- ونجيب منين فلوس العملية يا نعمة ؟

- نبيع كل اللي حيلتنا المهم صحتك

ينتهي عم بدر من شرابِ الأعشاب الساخنِ ؛ تهدأُ الكلى قليلاً ، وما أن ظهر النهارُ حتى تحاملَ على آلامه ، وخرج بحثاً عن سبيلٍ لتخفيفِ آلامه ، قابله الحاجُ " سعيد " :

- ما بك يا عم بدر ؟

- آلام الكلى يا حاج سعيد

- ألم تذهب لطبيب ؟

- عندما أصرف راتب التقاعد

- لا تحمل هما .. اليوم أصحبك لطبيب كبير

- ربنا يسترک يا حاج " سعيد "

- الناس لبعضيها يا عم بدر

عند المساء وبعد أن انتهى الطبيبُ من إجراءِ الفحوصاتِ وتوقيعِ الكشفِ الطبي :

- يبدو أنك أجريت عمليةً جراحيةً قبل ذلك يا عم " بدر " ؟

- نعم كان ذلك من سنوات ، طبيب ابن حلال أجرى لي عملية الحصىة .

ينظرُ الطبيبُ للحاج سعيد :

- ممكن لحظة يا حاج " سعيد "

- خير يا دكتور ؟

- لن أخفي عليك ، كليته في حالة متأخرة ، وعلاجه استئصال الكلى

- ما تراه يا دكتور ، وأنا متكفل بكل شيء ؛ عم بدر رجل مسكين وليس له في الدنيا سوى الله وأهل الخير

الطبيبُ بجزنٍ شديدٍ

- للأسف .. مينفعش يا حاج سعيد ...

44- إشارة مرور حمراء

مع نهايات الخريف تعيث الرياح في الآفاق ؛ تلقي بأوراقها الأشجار ، تبلل دموع الغيم الطرقات في مدينته الساحلية التي كانت مثل اللوحات الفنية كلما نظر إليها تزداد جمالا في كل مرة فتحمل لوجدانه سيفونية عشق ، على شطآن الذكريات لا يخط سوى اسمها على الرمال فتمحوه الأمواج وما يديه حيلة ، كلما أبعدته الأسفار وجدها في أنفاسه ؛ تشعل نيران وجدانه ، وفيما كان يشق " نديم " بسيارته دروب مدينة العتيقة ؛ يفتش بين البقايا منه عنها . تائه في الشوارع والميادين . يهيم وجدانه مع طيور النورس . تمنعه جدران الحنين بلوغ طريق النسيان ، وفي أثناء العبور نحو ذاته يتسلل من نفسه إليها لتروي عينيه . من قوارير العطر الخاوية يستجدي عطر أنفاسها . تبكيه أشواقه لمدينة فاضت روحها حين فقدت ألوانها . وإذ فجأة يباغته ضوء إشارة المرور الأحمر ؛ يتوقف بينما تمر غيمة داكنة ؛ يتوارى خلفها نور السماء ، تهب الرياح تهز الأغصان بعنف ؛ تبعثر العصافير ، وفي الضوء الأحمر تغوص عيناه ، تغفو سيارته بين شفتيه ، يمتطي ظهر الخيال ؛ أحلامه لا تسعها المسافات ، يعدو في مروج ذكرياته طفلا يلهو تحت زخات المطر ، على الكورنيش يفوح عطرها ينعش روحه ؛ فيهرول فوق غيمات الشتاء يغني على ألحان الصبا . يأتي غروب ترحل فيه الشمس ، يعقبه مساء يعانق القمر فيه السماء ، وعندما انتبه لدقات زمان شاخ ؛ يبكيها بعد أن تبدلت الأحوال ... لكن تظل هي لحنه الوحيد لم يعشق سواها .

مواء هرة مبتلة انزوت للرصيف ترتعد ؛ تنتشله من بحر الذكريات ، يلقي أرضا بكمامته الزرقاء ،
يسلم ناظره إلى السماء . ينبعث صخب آلات التنبيه ضجيجا يدق أبواب مسامعه يوقظه على صراخ
:

- يا رجل .. الإشارة خضراء .

45- الجريدة

هنا في ذلك المقهى يرتاح نفسياً وجسدياً أكثر من أي مكان ، على ذلك الكرسي المنزوي في الركن
الهادئ مسترخياً على جسر الحياة ، تلف أفكاره دخانه المتصاعد ، تتلقف أسماعه من الراديو ما
تشتبه من أنغام عذبة بعيدا عن ضجيج التكلف الزائف ، فقط مع جريدته ، يهيم في خلوته بين
أوراقها ؛ يتصفحها بشغف ربما وجد إجابات عن أسئلة تدور برأسه ، من النافذة يطل على سماء
الذكريات يستنشق مع هواء بحر الإسكندرية حيننا جارفا لأيام الصبا ، ترقب عيناه البحر الذي
ركب فيه سفينة الأيام ولم يخش أمواجه ، بحر رأى فيه من يسبح في خط واحد ومن يبرع في
القفز مع التيارات المختلفة كدلافين مسرعة ، لا يعيب أحدا منهم ؛ فكلها أساليب للسباحة في بحر
الحياة ، سباحة لا تحتاج إلى أذرع وأقدام بل مراوغة وإقدام ، ينظر لصفحة البحر فيلقي عن
كاهله غباء المعيشة ، وينفض عن نفسه غبار النفاق والزيف .

في الجريدة نفس الكلام ونفس الصور لا شيء يتغير ، ولكنه مازال يصر على قراءة الجريدة يوميا ،
الآن انتهى منها يرفع عينيه عنها ؛ تعود روحه الهائمة لجسده ، يطوي الجريدة تلتقط عيناه التاريخ
المدون عليها . هو نفس التاريخ لا يتغير .

46- كومبارس

عبر تقاطعات طرق الحياة يمر " رضا " ما بين اللونين الأبيض والأسود لا يحمل سوى اسمه ،
يسير بهدوء وروية دون صخب يعتمر القناع على الدوام ، يأتيه أوردرد جديد ؛ ينظر من النافذة
يغمض عينيه يرى صورته واسمه على كل أفيش ، يقضي ليلته غارق في حلمه ، وقبل الموعد
بكثير يتواجد في اللوكيشن مرتديا أخطر ما لديه من ثياب يقف منتظرا الأوامر ، يزعن لصراخهم
يلتزم الصمت ،

وبين أروقة الصفحات الخالية من أي حوار تعصف بأحلامه نوة بحر ثائر فلا ينسى أنه مجرد كومبارس بين المجاميع ، تكفي إشارة أصبع صغير منهم أن تناديه ، وفوق علامة طبشور خطوها له في جمود يقف لا يتقدم ولا يتأخر ، يظهر في خلفية المشهد تلون وجهه المساحيق ، يؤدي دوره بكل تقان ، بابتسامة باهتة يتمنى أن تصالح الكاميرا وجهه ليتحقق حلم كم بات الليالي يسبح فيه ، حلمه كبير لكن تعجز بصماته أن تلون صفحات حياته ، ينهي دوره الفارغ من الحوار بكل إتقان ، ينتهي تصوير المشهد ؛ يرد إليهم ملابس الدور ، ويمسح من على وجهه المساحيق ، وقبل موعد العرض أمام باب السينما يقف مرتدياً أقمع ما لديه من ثياب ، ينتقل بين رواد السينما يلقي بوجهه في عيونهم ربما انتبهوا لوجوده ، يرفع عينيه ينظر إلى الأفيش يبحث عن صورته أو اسمه .. كالعادة غير موجود .

مبتسماً ينطلق صوب البحر لا تكاد قدماه تلامس الأرض تخلق روحه تعانق قوس قزح ، وبخفة عصفور يرقص فوق الغيات .

47- النسر الأزرق

بينما يصدح قيثاره السماء بأي الذكر الحكيم ، والنفيسة من وراء حجاب تتلو وردها اليومي ، يجلس شوقي وحتي مع طه بجوار العز في حوش الشافعي ينصتون ، فإذا بنسر أزرق يحط فوق الجدران يضع عليها نقطة سوداء ؛ تنتفض الجدران فرعا ، فإذا بالعميد وقد سقطت نظارته السوداء في دهشة يتخبط فينادي ولا مجيب ، يتبعه حقي متكئاً على عصاه يطرق بها أبواب الأحواش ، حول الشافعي في الحوش كلهم يتجمعون ، تعلقو الجلبة ويزداد الصياح ترتعد منه حجارة الجدران ، نظرت بعيني فرأيت الفناء عبر قبضة حديدية باردة تنهال فوق فتطيح جدارني أرضاً ، ارتعدت فرائصي مخافة أن تنهال عليهم أحجاري فتتبعثر رفاة من في الحوش تحت أقدامهم العمياء ، تجمدت أوصالي و تألمت بشدة عندما انهارت أحجاري تنزف حسرة ، وذرفت عينها الدمع السخين لفنائني . وضعت على عيني نظارة طه كي لا أرى هواني ، استسلمت للموت والفناء ، وهمست لمدينتي بأهات الشوق في غسق الليل فبكت لفراقي ، تسرب ضباب العمر في مدينتي كما يتسرب الدخان من أفران فواخير الفسطاط ، وبعين تندت سألت مدينتي :

- أحقا ملت العين النظر إلينا بعد أن علانا غبار السنين ؟ هل طالت بنا رحلة العمر ، وضقتي بنا كما ضاقت شوارعك بقاطينها ؟ قدرك يا مدينتي أن تفارقيني بقسوة . لكن مهما تفتحت على وجنتيك الزهور بحثا عني فلن تجديني .

حول الشافعي تجمعوا وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم :

- هل من أمل ينير عتمة الوجدان ، ويبدد ضباب الأحزان ؟ غابت الشمس وحلت الغيوم فاختفت النجوم ؛ لتزداد العتمة ، وتتعرش الأقدام العمياء في الرفاة .

في رحلهم يتقدمهم الشافعي تصحبهم تلاوة قيثارة السماء " فَأَوْدُأُ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئُ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا " .

شوقي بأكيا ينادي من النيل إلى الفرات يسمعه في مرقده أبو العلاء يتساءل :

- أبكت تلكم الحمامة أم

غنت على فرع غصنها المياد ؟!

بدموع الحسرة يجيب شوقي :

- هل ترى كالتراب أحسن عدلا

وقياما على حقوق العباد؟!

تعود الجرافات تدوس الأرض بإطاراتها الضخمة السوداء ؛ فتطأ الأقدام الباطشة رفاة من رقدوا تحت التراب ، يزعق أبو العلاء من الفرات صارخا :

- خفف الوطاء ما أظن أديم

الأرض إلا من هذه الأجساد .

يعلو النسر الأزرق وبلا أكرات يحط فيضع نقاطه القاتمة ؛ يهرولون خلفها ليرسموا حولها دائرة سوداء ، تتعالى الصيحات ، ترتفع لها القبضة الحديدية الباردة تنهال فوق جدران كتب عليها (طالع إزالة) فتنجرف حجارتها إلى الهاوية بغير أناة .

ذات مساء يشبه تلك الأماسي التي مرت عليه ، يظل " عزيز " راقدًا في فراشه ينهل من عذب ينبوع الذكريات كلما ازداد عطشا في لياليه الجذباء لترد للروح عافيتها ، ينظر إلى ساعة الحائط التي توقفت عقاربها عن الدوران ولا يستطيع إصلاحها منذ اعتزل مهنته وأغلق ورشته لتصلح الساعات ، من عادة عزيز في ليالي الشتاء ألا يتحرك من مرقدته يحتضن قطته الأليفة تؤنسه في وحدته ؛ لا يجد عزيز مكانا في قلب يذهب إليه أو حضنا يفرغ فيه آلام الفقد ، يطيل النظر للهاتف الأصم الأبكم ، تتوق روحه لعطر شجرة الياسمين ؛ يضىء مصباحا صغيرا بجوار سريره اعتاد طيلة خمس سنوات على إضاءته بنفسه منذ ماتت " أولجا " وماتت معها ماكينة السينجر السوداء التي طالما خاطت بها لجاتها ملابسهن المنزلية البسيطة ، تعانق أصابعه فنجان قهوته لأبخرتها بيوح بالأمه ، يعشق عزيز المساء والمطر يمضي وقته في الليل وحيدا يفتقد دفء ابتسامه أولجا ؛ ينأى بروحه عن صحب الحياة التي أنفق فيها سنوات عمره بغير حساب ، تحدثه روحه حديثها الهامس المعتاد :

- تسأل نفسك أين غابت أحلامي؟

يهوم برأسه ممتماً :

- ما أسرع حُطى الزمن !

تعيد نفسه ذات السؤال :

- فيم أنفقت عمري ؟ وهل كنت أعني سر الحياة ؟

تجيبها الروح بصوت متهدج يخالطه الحزن :

- صارت الحياة فاترة وانقضت سنوات العمر لتعقبها الشيوخوخة البائسة فتتساقط معها

الأحلام كعصف شجر اصفرَّ في خريف أرعن .

تهفو نفسه إلى شجرة الياسمين التي شاركنه أولجا زراعتها أمام البيت أول زواجهما ، وفي هذا الليل الساكن يهز كيانه صوت انهيار مروع لجسور تعبر عليها قطارات ذكرياته ، يمزق أحشاءه اغتيالهم لشجرة الياسمين المزهرة لرصف الشارع . نجأة يشق السكون رنين الهاتف ؛ تقفز القطة فرعاً فيسقط من يده فنجان القهوة .

مندهشا يسأل فيأتيه الجواب :

- النمرة غلط .

49 - قطار القدس الأخير

جاءه الموعد السنوي المعتاد فالورقة تحمل ذات الرقم السنوي مع اختلاف السنة فالיום الرابع عشر من مايو، يتكئ " عدنان " على وحدته شاردا في لا أحد ، على كتفه الحطة الفلسطينية في إحدى يديه العقال ، يسير بخياله على جانب سكة حديد ممتدة على قضبان شامخة تتحدى الزمن لتقول للجميع :

- كنا هنا ذات يوم أصحاب للحياة والحضارة ولا أحد يستطيع إنكار ذلك مهما مر الزمن .

تلك القضبان الصدئة شهدت الرحلة الأخيرة لقطار القدس يوم حملته أمه من خاصرته ورفعته عن أرض رصيف المحطة ليقبل أباه الواقف في نافذة القطار مودعا ، يتشبث عدنان بكفه الرقيقة بحطة أبيه لا يتركها ، يتحرك القطار فينزع الحطة يسقط على الرصيف العقال ويمضي القطار، تحتفظ الأم بالحطة والعقال حتى عودة الزوج في ذات القطار بعد أن ينهي بعض أعمال مع أخوته في حيفا . يزج الصغير صرير المكابح وصفير القطار وأعمدة الدخان المتصاعدة برائحة المازوت ، يتابع أباه الذي يلوح لهما من نافذة القطار بمنديله ؛ يبكي الصغير على غير عادته ، تهاجم عصابات الهاغانة القطار في طريق مرج بني عامر ويحترق القطار بمن فيه من عرب ، ويتوقف خط سكة حديد القدس في ذات العام ولا يعود لمصر ، في ذلك اليوم وقف الغاصب مبتسما في يده بندقية وصاحب الحق مقيدا بسلاسل حديدية ، تتوقف السكة الحديد ، ينزلون الساعة الكبيرة ذات العقارب المعدنية المعلقة على واجهة محطة القدس بعد أن رنت رنينها الأخير مثل صوت قرع أجراس كنيسة القيامة في بيت لحم ، يحترق لها المسجد الأقصى حزنا . صار الصغير شيخا في راحتيه حطة أبيه يضعها على وجهه يشم ريح أبيه فترتد له ذاكرة لا تضيع . يطوف في مسامعه صوت أمه التي عاشت تحدته عن بحيرة طبرية وزهور شقائق النعمان التي تملأ الأودية وخرير الجداول في المزارع ورائحة أزهار الليمون وأشجار الزيتون وتغريد الحمام ونور الشمس المشرقة من النهر إلى البحر . لا يغادر باله نكبة الأرض . يجري لسانه بكلمات أمل

- إنه ليس ثأرك وحدك

- لكنه ثأر جيلٍ فجيل

- وغداً ..
- سوف يولد من يلبس الدرع كاملةً
- يوقد النار شاملةً
- يطلب الثأر
- يستولد الحق
- من أضلع المستحيل .

وفجأة إذا بالشيخ عدنان وكان الزمان عاد به للوراء أو كأنه بقطار القدس رجع يسير على قضبان عادت لامعة كالفضة ، يقف أبوه في نافذة القطار وعلى رأسه الحطة والعقال ، فما عاد يزج عدنان صرير مكابحه الحديدية أو صفيهه العالي ، يشم في أدخنته المتصاعدة رائحة أزهار الليمون وأشجار الزيتون ، يعود عدنان طفلاً وبكل ما أوتي من قوة يرفع ذراعه بالحطة ملوحاً بها لأبيه صارخاً :
- لن أصالح .

50- أشجار الزيتون

فوق الأرض تنن أشجار الزيتون الضمأى بينما الماء في العلا يرتعد خوفاً يتشبث بالغيوم يجبن أن يصير مطراً ؛ فلا تزهر أشجار الليمون ، تحترق أشجار الزيتون تبكيها عيون سنابل خضر ، تخرج جردان من أوكارها تهدم أعشاش الطيور ، يمتطي الفارس " يوسف " سهوة جواده ، مرتدياً دروعه الحديدية لا لتحميه من ضربات السيوف وطعنات الرماح لكن لترهب أعداءه وتقذف في قلوبهم الرعب ، أقفال صدئة على قلوب غلف ، رايات عار بيض يخضبها دم الطيور ، ترفع الرايات البيض أياها مرتعشة بالسنة شجب عبثية ، وميض تحت الأناقض تتقد جذوته ثائراً يرفض أن تدنس أرضه الجردان ، ومدينة الزيتون جاثية على ركبتيها ينحرون صغارها تنتظر دورها في الذبح صابرة أمام ضمير مترهل يغط في نوم عميق ؛ يبحث يوسف عن أعشاش الطيور وسط نيران غاشمة أحرقت أشجار الزيتون وأزهار الليمون . يتحسس يوسف نورا بعد أن انطفأت في السماء النجوم ، يمضي في ساحات الشرف يجارب وحيداً لا تهزمه جيوش ولا تقتله طعنات بل تصرعه آلام خذلان تخفيها دروع تحتها يتمزق جلده ، يخفي آلام جسده المثقل بالأوجاع بينما هو على ظهر جواده صابر رافع الرأس يبعث مظهره على القسوة وبث الرهبة في حين يتآكل جلده داخل

الدرع الحديدي ينزف جرحه لا يعلم به إلا الله ، تركوه وحده في الجب وكتبوه غائباً عن جمعهم ، تفوح من أفواههم رائحة العفن ، الجسد يتآكل تحت حديد الدروع لكنها حياة الفرسان يمضون إلى الحروب إلى أن يسقطوا فجأة في ساحات الشرف والعزة لا بطعنة رمح يسقطون وإنما بذلك العفن الذي يزحف على العقول ، يتمنى يوسف أن يحتضن ماء المطر أرضه فتزهر أشجار الليمون وتحيا أشجار الزيتون يود أن يقبل ضوء القمر صفحة البحر فيتدفق ماء النهر المقدس إلى بحيرة طبرية لترفع راية الكويترال رأسها إلى عنان السماء ، يحلم يوسف أن يتحرك الحرف الساكن فتعزف اللغة جملاً للسلام . بالقرب من شجرة الزيتون المحترقة وجدوا جثته تحت الأنقاض مثل رسالة مطوية في زجاجة أغلق فيها بالفلين لفظتها أمواج البحر لا يستطيع أحد أن يدين من ألقاها . وصفته دموع عيون محترقة :

- أبيض حلو شعره كبيرلي

لم يتعرف على أشلائه أحد ، من الذي فصل رأسه عن جسده ؟ وماذا فعل ليستحق كل ذلك ؟ تسقي دماؤه الأرض لتزهر أشجار الليمون وتنبت من جديد أشجار الزيتون

51- على فكرة

ما زلت أنتظرها ولم تأت بعد ، ليل يلقي سكونه يلف أفكاري ، ألقيت بجسدي المتهاوي إلى فراشي ، يداعيني النوم ، يرتدني الدفء ، تتناقل أجفاني ، تمد يديها لي ، تداعب خصلات شعرها وجنتيها ، تهادى في ثوبها الشفاف الفضفاض ، فيترأى لي جسدها المرمري المتفجر بالحيوية ، فتداعبني :

- هيا انهض ، فأنا الليلة مفعمة بالطاقة

- لكن جسدي مثقل الليلة ، خائر الهمة

- إن لم تنهض .. فلن تجدني أبدا

منتائبا وقد تملكني النوم :

- لندع الأمر للغد

يتمتع لونها ، يتمزق ثوبها ، يتطاير شعرها ، يخفت صوتها تبعد ، يبتلعها ضباب ؛ تختفي ، فلا أبالي ، أعانق النوم بشوق ، تشرق شمس نهار وضاء المحيا ، أجلس إلى مكتبي ؛ أعبث في أوراق ، أبحث عنها دون جدوى . يضعون فنجان قهوتي أمامي يسألون :

- علام تحزن !؟

بزفرة حارة وصوت هامس :

- على فكرة .

(دراسة نقدية للأستاذ سمير الفيل لقصة إنهم يزرعون الكراسي)

تلوح في افق السرد فكرة الاحتمال والظن والشك ، حيث لا توجد حقائق حاسمة في دائرة القص الحديث ، فكل الشروط الفنية مهيأة للتعامل مع المادة الخام للبنية القصصية برحابة واريحية .

ويعد عنصر " الكاريكاتير " أي اللعب في النسب إحدى أدوات فنان الكاريكاتير ، الذي يعمل على تقديم صورة مقربة للمواقف الإنسانية مع تعديل النسب لتوضيح كم الأخطار التي يتعرض لها مجتمع ، نخر السوس أسسه ، فأصبح في حالة خطر داهم ، وسقوط مريع .

في قصة "إنهم يزرعون الكراسي" للكاتب سمير لوبه اقتراب من هذا النسق الجمالي ، والفن القصصي الكاريكاتيري ، فالبداية تكون مدخلا للمعرفة حول القرية ونسقتها ، ناسها ، مشاكلها الاجتماعية ، واطماع المتنفيين من ابنائها ، وهكذا .

تبدأ ضربة البداية بشكل جميل حيث تحديد صارم للمكان ، مع الترميز بمشهد جما راكبا حماره بالمقلوب وهي لقطة منتزعة من التراث الشعبي لعموم المصريين : " مجرد اسم في البيت الطيني داخل الحارة الكسيحة في تلك القرية العرجاء التي لا تعدو كونها خطا في خريطة متهالكة ، يدخلها مرة في اليوم قطار مخمور يتسكع على خط السكة الحديدية ، وبصوت بح ينادي عليهم ربما يغامر أحدهم ويركبه لكن الكبار هنا تعلموا ألا يجادلوا البحر في موجه ، فهم يفضلون السير حفاة وفي أفضل الأحوال يركبون الدواب ؛ فالمسافات عندهم مثل أيديهم قصيرة " .

يستمر الحوار بين جما وبين عدد من الصغار ، ويأتي حكيم ليفترض أرض الجرن ، يمस्क بقايا طبشور بأصابعه ، ليكتب تلك الحكمة الشعبية المعبرة عن أحوال الناس ومسلكهم الاجتماعي : " في البلد التي تعبد عجلا حش البرسيم واعط له " .

ينصحهم أن يتفهموا درسهم الأول ، ثم يمسك أصيصا يعلمهم كيف يرعون شتلاتهم الصغيرة حتى تصير شجرة تمتد جذورها في الأرض فلا تقتلعها عواصف الأيام ورياح الصدف.

يحتاج مثل هذا الدرس إلى وعي وفهم ويقظة ، وحين يكبر واحد من الصغار ينوي ركوب القطار ، ويسارع بالجلوس على مقعد شاغر به ، على رصيف المحطة يندس بين جموع المسافرين ، يخترق الزحام في محطة العاصمة ، يمنعهم رجل المرور من العبور بوضعه حاجز في طريقهم كي يصعدوا الكوبري المعدني مرغمين. يبتسم لرجل المرور في خنوع فيسمح له بالمرور وأمام المباني الشاهقة تتلاحم الأجساد بين صعود وهبوط ، فيتمكن من الوصول إلى السلم قبل الجميع ، وعند مدخل باب الإدارة يحتضن إحدى الشتلات يسقيها دروسه الخمسة التي ضمها لتكون عقداً في أوسطه صورةً لحمارٍ مربوطٍ .

لقد صارت الشتلة شجرة ذات جذور ممتدة إلى الأعماق ، تنمو وتصير شجرة تقوى وتمتد جذورها يوماً بعد يوم .

ذات يوم وقف ساعي المكتب يلمع لوحاً نحاسياً مثبتاً بالمسامير على الباب الكبير ، والموظف الأنيق يحمل الملفات يمنعه ساعي المكتب من الدخول .

تمضي السنوات سريعاً ، " وفي السيارة السوداء الفارغة يعود لقريته التي اختفى منها القطار المخمور واندرثت معه السكة الحديدية والبيوت الطينية وتعالق الأبنية واصطفت السيارات واختفت الدواب و في الطرقات على الأسفلت نساء يرتدين البنطلونات يمشين بشعورهن السارحة دون قيود ، وفي المساء يصحبونه للاجتماع بالشباب في القاعة المكيفة وسط القرية ، يجلس على الكرسي يتوسط المنصة تترقبه العيون - اليوم أعلمكم كيف ترعون شتلاتكم "

هذه دروس النفاق ومغالبة الزحام ، واقتناص الفرص حتى يتمكن " القروي " من الوصول إلى هدفه الذي لم يكن يتصور ان يصل إليه ، وبالتأكيد هي صورة ساخرة لكن لها ظل من الواقع ، وعلى الأرجح فإن الكاتب حاول من خلال هذا الطرح الذكي ، بصبغته الساخرة أن ينبه الناس إلى أخطار نماذج مشوهة ، وهي شائعة في حياتنا.

والرمز الذي استخدمه حيث يظهر جحا في صورة كوميدية تعمق من المعنى فيها نحن نرى " جحا " يصل إلى الوليمة في ثياب رثة ، فيطرده الخدم ، يختفي ليعود بثياب فاخرة أعطاها له أحد الامراء

فيسمحون له بالدخول، وهي من طرائف هذا الرجل . عند المائدة يغمس كفه في الصحن وهو يقول له بنبرة مريرة ، مشحونة باللوم والعتاب : " كل يا كمي ، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام " .

لعل هذا النص يقدم لنا نموذجاً من الأدب الساخر ، فهو يطرح الدروس الخمسة المستفادة من مشواره، والحقيقة ان فلسفة ما تطل من بين السطور ، واستدعاء مناطق من التراث الشعبي أضفت على النص خفة ورشاقة ومرح ، رغم أن الخطاب العام هو تعرية الفساد وكشف العثرات في مجتمع ما زال يرسف في أحواله القديمة ، وأمراضه المزمنة حيث غياب المعنى ، وموت الضمير، والاهتمام بالعرض دون الجوهر.

سمير لوبه يقدم نصاً جميلاً فيه مساحة للكوميديا والكاريكاتور الذي يدفعنا للتساؤل عن مستقبل البلاد والعباد دون أن نقع في " فخ " الإحباط !؟

الفهرس

م	عنوان القصة	الصفحة
1	صلاة العيد	
2	على الهامش	
3	بليّة	
4	الجندي الأخير في جيش سقنن رع	
5	رسائل البحار السبعة	
6	الدنيا على جناح سلامة	
7	أمطار في يونيه	
8	الأراجوز	
9	على رأس الساعة	
10	من الشمس للظل	
11	مقامة الشاب النحيف	
12	نمل وخياشيم	
13	وقيدت ضد مجهول	
14	الطير المهاجر	
15	أبيض وأسود	

	طائر الكويتزال	16
	ديوك تبيض	17
	اللبن الصباح	18
	إنهم يزرعون الكراسي	19
	برج الثور	20
	المريلة	21
	البرابرة في المدينة	22
	باب البحر	23
	قدورة أبو العيال	24
	عندما يأتي المساء	25
	يوم قابلت نجلاء فتحي	26
	حديث المدينة	27
	فرسان ودروع	28
	لقاء	29
	مجرد مشهد	30
	أسير الحرف	31
	تزيق الشهر	32
	سليم وعبد العليم	33
	مسك وبصل	34
	أوركسترا	35
	أوبرا حمزة	36
	البالونة	37
	عين الرسام	38
	الكهف	39
	شارع الحب	40
	التزام	41
	كف وثلاثة أصابع	42
	عم بدر	43
	إشارة مرور حمراء	44

45	الجريدة
46	كومبارس
47	النسر الأزرق
48	النمرة غلط
49	قطار القدس الأخير
50	أشجار الزيتون
51	على فكرة

المؤلف :

سمير لوبه

من مواليد الإسكندرية 1970

تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1992

صدر له :

- كواليس مجموعة قصصية
- البحر بيضحك ليه مجموعة قصصية
- إحساس مجموعة قصص قصيرة جدا
- المتاحة مجموعة قصصية
- قراءات . إبحار في قراءات نقدية
- رواية الوعد والمقسوم
- رواية الغريبي
- الجندي الأخير في جيش سقنن رع مجموعة قصصية

Smyrlwbh@gmail.com

01226119162 سمير لوبه - مصر